نغوجي واثيونغو

النهر الفاصل



ترجمة: عبد الله صبحي

سلسلة روايات عالمية «١٩»

النهر الفاصل

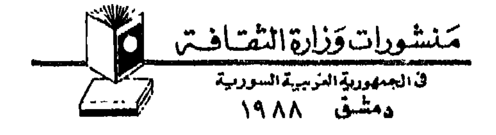
روايات عالمية

« ١٩ »

نغوجي واثيونغو



ترجمة: عبد الله صخي



العنوان الأصلي للرواية :

THE RIVER BETWEEN

Ngugi Wa Thiong'o

النهر الفاصل = The River Between / تاليـف نغوجي واثيونغو ؛
ترجمة عبد الله صخي .ـ ط. ١ .ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٨٨ .ـ
٢١٤ ص. ؛ ٢٥ سم .ـ (روايات عالمية ؛ ١٩) .

يعرف المؤلف باسم جيمس نغوجي .

١ ـ ٨٢٣ كي واث ن ٢ ـ العنوان ٣ ـ واثيونغو ٤ ـ صخـي
٥ ـ السلسلة

مكتبـة الاسـد

الايداع القانوني : ع ـ ١٩٨٨/٣/١٩٨

عن الروائي والرواية

نغوجي واثيونغو (جيمس نغوجي) كاتب كيني مرموق . ولد عام ١٩٢٨ في « ميرو » بالاقليم الاوسط ، قرب نايروبي . في السادسة من عمره دخل احدى مدارس البعثة التبشيرية . ثم مدرسة « غيكويو » حيث استمر حتى عام ١٩٥٥ ، ماعدا الفترة الواقعة بين ١٩٤٨ – ١٩٥٠ اذ توقفت الدراسة في جميع انحاء كينيا إثر نشوب ثورة « الماوماو » ضد الاستعمار البريطاني .

في عام ١٩٥٥ التحق بمدرسة « اليانس » العليا . وفي عام ١٩٥٩ انتقل إلى جامعة ماكيريري في « كمبالا » عاصمة اوغندا . وبعد تخرجه عام ١٩٦٤ عمل في جريدة يومية تصدر في نايروبي . بعد ذلك سافر إلى بريطانيا لأكمال دراسته في جامعة « ليدز » . في عام ١٩٦٧ عاد إلى وطنه ليعمل محاضراً في جامعة نايروبي. ثم رئيساً لقسم الأدب في الجامعة ذاتها .

اشتهر نغوجي برواياته : « لاتبك ايها الطفل . حبة قمح . تويجات الدم . والنهر الفاصل » . ونال عليها جوائز أدبية عديدة . يعتبر واثيونغو واحداً من كتاب كينيا الطليعيين الذين قدموا اسهاماً متميزاً للأدب الافريقي . ترجمت اعماله إلى الكثير من اللغات . بينها العربية ،

التي صدرت فيها ثلاث من رواياته : « لاتبك أيها الطفل ، حبة قمح . وتويجات الدم » .

وهانحن نقدم روايته الرابعة « النهر الفاصل » . حيث يواصل فيها مسعاه في معالجة قضايا شعبه الملحة، وموقفه من التراث الديني والاخلاقي، ومعركته ضد الاستعمار .

في هذه الرواية يحرص واثيونغو على ان يعرض لنا صورة واقعية للصراع في معانية المتعددة . لذلك يلجأ إلى استعارة الكثير من الرموز التاريخية ، الافريقية والمسيحية ، ويوظفها في نسيج فني حي آخاذ .

« واياكي » بطل الرواية ، الشاب ، ليس بطلاً اسطورياً كما يبدو ، بل هو بطل واقعي ، نشأ في ريف غيكويو الذي يتعرض للغزو والانتهاك . انه سليل شخصيات ذات شأن هام في التاريخ الانساني لإحدى القبائل الكينية . شخصيات قاومت الظلم والاستبداد . لذلك ينهض « واياكي » بمهمة مقاومة المستوطنين البيض الذين قدموا إلى كينيا « بملابس كالفراشات » . فيشرع واياكي في اجراءحركة تجديد فتية . تتجاوز القبلية والاقليمية والعنصرية ، وتعتمد على الثقافة والتعليم كسلاح في مواجهة الاستعمار والتخلف والقهر والاستلاب . حركة تستلزم التعاضد والتكاتف والوحدة في وقت تتبعثر فيه الجهود بالنزاعات والانقسامات ، تلك التي تضاعف الهوّة القائمة بين جماعتين من قبيلة واحدة ، ومع ذلك يظل هدف البطل الأسمى : التعليم ، الوحدة ، الحرية السياسية .

المترجم

الفصل الأول

كانت هناك سلسلتان متقابلتان من التلال ، تسمى احداهما كامينو ، والثانية ماكويو. وبينهما واد يدعى وادي الحياة.خلف كامينو وماكويو الكثير من الوديان والتلال التي تستلقي دون أية خارطة تميزها عن بعضها . انها تشبه أسوداً نامت ولم تستيقظ بعد ، نامت نوماً عميقاً كنوم خالقها .

ثمة نهر يجري في وادي الحياة . ولو لم يكن هناك ادغال واشجار كثيفة تغطي منحدرات التلال ، لكان بمقدورك ان ترى النهر حين تقف على قمة كامينو أو قمة ماكويو . لكنك لاتستطيع ان ترى مدى النهر كله حتى اذا هبطت إلى الاسفل . كان النهر رشيقاً ، يشق طريقه في عمق الوادي بهدوء كأفعى . إنه نهر هونيا ، الكلمة التي تعني : الشافي ، او الذي يعيد الحياة . ونهر هونيا لم يجف أبداً ، كان يبدو ممتلكاً ارادةً قوية للحياة ، وكان يزدري الجفاف وتغيرات الطقس . إنه يمضي متدفقاً بنسق واحد ، لايسرع ولايتمهل ،لذا ظل الناس يرون ذلك ويبتهجون .

كان هونيا يمثّل روح كامينو وماكويو التي وحدتهما معاً.انه نهر الحياة الذي وحّد أيضاً الرجال والماشية والحيوانات البرية والاشجار .

حين تقف في الوادي فان سلسلتي التلال تكفان عن ان تكونا أسوداً نائمة وحدّها نبع حياتها المشترك . انهما تصبحان عدوّين . وبوسعك ان تكتشف ذلك ليس من خلال اي شيء ملموس بل من خلال الموقع الذي تقابل فيه احداهما الأخرى ،والذي يجعلهما مثل متنافسين يتهيآن للقتال ، قتال الموت والحياة من أجل زعامة هذه المنطقة المنعزلة .

في تل ماكويو ، وفي زمن موغل في القدم ، ظهر رجل زعم ان غيكويو ، مؤسس القبيلة ، وزوجته مومبي أقاما هناك مع مورنغو ، إله الاجداد ، وهما في طريقهما إلى موكورووي واغاتانغا ، ونتيجة لتلك الإقامة — قال الرجل — فان الزعامة منحت إلى ماكويو . ولم يصدق ذلك جميع الناس . ألم تكن هناك دائماً همسة او اشاعة تفيد ان غيكويو وزوجته مومبي قد توقفا في تل كامينو ؟ ثم ألم يبرز تل صغير من الارض التي وطأتها اقدامهما في جنوب كامينو ؟ .

يومها قال مورنغو لهما : « هذه الارض امنحها لكما ، أيها الرجل ، أيتها المرأة ، انها لكما لتحكماها ، تفلحاها ، انتما وذريّتكما » .

كانت خصبة ارض ريف غيكويو * الممتدة من الافق الذي يعانق السماء إلى الافق المختفي في الغيوم . هكذا بدأت القصة في تل كامينو الذي انيطت به الزعامة والمسؤولية الروحية .

ولكامينو دليل واقعي لتأكيد هذه القصة . انه أيكة مقدسة انبثقت

---

* منذ زمن بعيد ، وتيمنا باسم مؤسس القبيلة ، غيكويو ، سميت تلك المنطقة بأسم (ريف غيكويو) ، وهي تقع وسط كينيا . ومقسمة إلى خمس مقاطعات أدارية صغيرة هي :

نايبري ، كيامبو ، مورانغا ، ايمبو ، ميرو . — المترجم —

من المكان الذي وقف فيه غيكويو وموميي ذات يوم ، والذي مايزال الناس يقدمون له الولاء والعرفان . ولقد تيقن كل من كان يهمه التعداد ان تل كامبنو قد انجب من الابطال والقادة أكثر مما انجب أي تل آخر . فموغو واكيبيرو ، متنبىء غيكويو العظيم في ذلك الزمن الغابر قد ولد في كامينو وشب في أديمه . كان يرى رؤى ً مستقبلية ثم يرويها للناس الذين يأتون لمشاهدته والاستماع إليه . غير ان عدداً قليلاً منهم ، أكثر سخرية من جيرانهم ماكانوا يذهبون إليه ، اذ اعتبروه دجّالاً . وذات ليلة حين كان الناس نائمين اختفى من التلال : بعدها سمع صوته في الاراضي الواقعة خلف التلال ، في نايبري ، وكيامبو ، ومورانغا . والحق انه سمع في جميع مناطق ريف غيكويو ، حيث استمر معلناً نبوءته بصوت عال . كان يصيح : « سيأتي أناس بملابس كالفراشات » .

وكان يقصد بذلك : الرجال البيض .

وهناك الساحر العظيم كاميري ، الذي أدهش بتكهنه حتى الرجال البيض في مورانغا . وقد اكسبه سحره وتنبؤه شهرة مدوّية قبل ان يسيطر عليه الرجال البيض بالهدايا والابتسامات .

وقالوا أيضاً ان كاميري ولد في كامينو ، لكنه مثل موغو الذي قبله ، اختفى من التلال ، وغادر إلى المناطق التي تقع في ماوراء الريف ، اذ سئم الحياة الضيقة في التلال .

ثم واتشيوري ، المحارب العظيم الذي قاد القبيلة كلها ضد قبيلتي اوكابي وماساي . ويروى انه حين كان شاباً قتل أسداً لوحده . وحين توفي على يد رجل ابيض ضال ترك اسماً عظيماً محبوباً من جميع المحاربين الفتيان .

كانت التلال منعزلة . للناس فيها حياة خاصة . لايقلقها مايحدث بعيداً عنها او خلفها ، وليس ثمة مايخشاه الرجال والنساء ، فأفراد قبيلة

اوكابي لن يجيئوا إلى هنا ، واذا جاءوا فسيضلون الطريق بين التلال والهضاب والوديان . حتى اذا كانوا من ريف غبكويو ، أمّا اذا كانوا من مناطق مثل نايبري او كيامبو فلا يستيطعون معرفة طريقهم جيداً بين التلال . وهكذا غدا الريف الذي يضم مجموعة من التلال وحيداً ، لايتأثر بالقوى الهائجة التي تأتي من الخارج .

كانت السلاسل تشكل قلب وروح الارض . اذ حافظت على سحر وطقوس القبائل ، وأبقتها نقية ، سليمة . وكان ساكنوها يبتهجون معاً ، يمنحون لبعضهم حرارة ودفء مرحهم . احياناً كانوا يتقاتلون ، لكنهم يتقاتلون فيما بينهم ، ولاحاجة لأن يعرف الغريب ذلك ، فهم امامه يصمتون ، ولايهمسون بأي من اسرارهم التي يحرسونها . كانوا يتداولون مثلاً سائراً يقول : « مشمّع البيت لم يوضع كي يحتاك به جلد الغرباء » .

زعماء الارض نهضوا من هناك . ورغم ان التلال كانت منعزلة ، الا ان الذين غادروها كانوا قليلين ، هم اولئك الذين امتلكوا الشجاعة ، للتطلع إلى أبعد من رضاهم الحالي ، إلى حياة واراضي الآخرين . اولئك كانوا النخبة التي اصطفاها الإله مورنغو وارسلها لانقاذ أناس في ساعة حاجة ، انهم : موغو المتنبىء العظيم . واتشيوري المحارب المجيد . وكاميري الساحر المقتدر .

لقد أصبحوا غرباء عن التلال . ومنذ ذلك الحين لم يعد مشمع البيت لهم . انما لأولئك الذين يعيشون في الداخل ، اولئك الناس الذين تنطق دماؤهم وعظامهم بلغة التلال .

كانت الاشجار تصغي ، تتأوه مع الريح وتصمت . وكانت الطيور والحيوانات البرية تصغي بسكون تام ، لكنها احياناً كانت تستجيب باطراء مرح أو بزئير غاضب .

* * *

الفصل الثاني

الآن أصبحت التلال والهضاب في الخلف . فهذا هو السهل ، الامتداد المنبسط الوحيد في الريف . واذا ضيّقتَ عينيك محدّقاً في المدى الغائم فسيكون بوسعك رؤية ارض قبيلة اوكابي . كان كل شيء مسالماً في هذا السهل الذي قيل انه كان ميدان قتال في يوم ما . ثمة ابقار قليلة كانت تقتلع الحشائش وتمضغها ، بينما ربضت ابقار أخرى تحدّق ببلادة في المكان من حولها وتلوك مافي افواهها .

فجأة ، ظهر فتَيَان من الدغل واخذا يتشاجران . كان الاول طويلاً ، وعنقه طويلاً ايضاً ، غير اعتيادي . اطرافه الاخرى كانت كذلك ، لذا بدا أكبر من عمره الحقيقي . انه كاماو بن كابوني ، من تل ماكويو . وكان الثاني واسمه كنوثيا ، اقصر من الاول ، ذا عضلات قوية على نحو مدهش . عيناه واسعتان باردتان ، تناسبان تماماً جبينه الأملس . انه يعيش مع عمه في قرية خلف سلسلتي التلال ، بعيداً عن ماكويو ، اذ أن والده مات في وقت مبكر .

في البدء تقاتل الفتَيَان بالعصي التي اقتطعاها من الدغل . الا انها كانت خضراء طرية فتهشمت واصبحت قطعاً صغيرة من فرط تقاطعها العنيف مع بعضها في الهواء عدة مرات . رمياها بعيداً عنهما ، سقطت

احداها على بقرة ، فنهضت مسرعة خائفة . وعلى بعد خطوات قليلة منهما توقفت موقظة بقرتين اخريين في طريقها . وراحت تنظر في الاتجاه المعاكس دون ان تبالي بالمعركة التي استمرت على مقربة منها .

أخذ الفتيان يتصارعان، تشابكت ايديهما. حاول كل منهما أن يطرح الآخر على الارض أكثر من مرة ،غير أن أياً منهما لم يحرز تقدماً على الآخر . جهد كنوثيا ان يرفع كاماو عن الارض ليسقطه بساقه اليمنى الا انه فشل في كل مرة . ذلك ان كاماو كان يكافح ايضاً . ورغم انه لم يكن ثرثاراً إلا أنه اليوم راح يهدد بطلاقة .

— ستعرف من أنا . — حذّر كاماو وهو يستخدم ركبته اليمنى لضرب كنوثيا في بطنه .

— يابقرة . — صرخ كنوثيا بألم .

— ياضبع — ردّ كاماو .

— حتى انت . — فحّ كنوثيا متراجعاً إلى الخلف ، وقد بدا متماسكاً للحد الذي كان بوسع اي مراقب ان يفكر بأنه سيفوز . غير أنه تعثر بحجر حاد فسقط منبطحاً فوق بطنه . عندها انحنى كاماو عليه ، وثبّت يدي كنوثيا خلف رأسه . كان وجهه شرساً ومتجعداً بعنف وهو يستخدم رأسه لضرب وجه كنوثيا الذي بدأ ينزف من أنفه ويتألم . كانت ساقاه ترفسان في الهواء ، على أمل ان تمسكا برقبة كاماو . إلا أن الضربات تواصلت فأربكته ، ولم يعد يعرف متى وأين ستقع الضربة التالية .

أدارت البقرات التي ابتعدت رؤوسها وراقبت المعركة لبرهة

قصيرة . ثم احنت رؤوسها واخرجت السنتها لتقتلع وتمضغ الحشائش كالأخريات .

تلك اللحظة هبّ فتى آخر راكضاً . شق طريقه بين قطيع من الابقار على مبعدة . وصرخ متقطع الانفاس وهو يقف قربهما :

— كفّا عن القتال .

وعلى الفور توقف كاماو ، الا انه ظل رابضاً فوق كنوثيا .

— لماذا تتقاتلان ؟

— لقد شتمني . — اجاب كاماو .

— كذاب . سخر مني لان ابي توفي وهو فقير . و . . . .

— قال ان ابي أصبح مع الرجل الابيض . — احتج كاماو .

— انه . .

— أنت شحاذ . — صاح كاماو .

— انه عبد للرجل الابيض . — أكمل كنوثيا .

— أنت . . . أنت . . . —

غضب كاماو ، واهتاج ، وهمّ بالانقضاض على كنوثيا الذي نظر إلى الفتى القادم للتو متوسلاً .

— رجاءً ، كف عن هذا ياكاماو . ألم نقسم نحن أبناء التلال على أننا رفاق ؟ . — أحس الفتى القادم للتو باليأس اذ انهم قبل ثلاثة أيام فقط أقسموا على أن يكونوا إخوة .

وتساءل كاماو :

— كيف اهتم لرفاق يهينون أبي ؟

ـــ سأفعل ذلك ثانية . ـــ أجاب كنوثيا بسرعة من بين دموعه .

ـــ افعل الآن .

ـــ سأفعل .

ـــ حاول .

واخذا يتنازعان من جديد . وانتاب الفتى الذي قدم من بين الأبقار احساس لايقاوم بأن ينقض على كاماو . فاقتلع ورقة عشب وراح يلوكها بسرعة . واتسعت حدقتاه بالغضب والخوف . وصرخ بعنف :

ـــ كاماو .

وبعث الارتجاف في صوته رعشة خوف في قلب كاماو ، الذي رفع رأسه في الحال ، فالتقت عيناه بعيني الفتى المتقدتين المحدقتين به . عندها اطاع كاماو الأمر المكتوم خانعاً . الا أن وجهه اصطبغ بظل أكثر عتمة عما كان . وانسل يجلله احساس بالإهانة والكراهية لنفسه بسبب استسلامه . نهض كنوثيا متأرجحاً ، ونظر إلى الفتى شاكراً . استمر الفتى خافضاً رأسه ، محدقاً في بقعة واحدة . ذلك ان نشوة الفخر والانتصار التي تملكته عندما امتثل له كاماو قد خمدت فجأة ، وتحول إلى احساس بالأسى لما أقدم عليه . وربما كان يسرّه لو أن كاماو تمرد عليه . واستخدم القوة لإبعاده .

كان اسم الفتى هو واياكي . الابن الوحيد لتشيغي . انه أصغر سناً من كاماو وكنوثيا . ولم يكن قد أجتاز ولادته الثانية بعد . لكنه مع ذلك كان أطول من الفتيان الذين في سنّه . كانت بنيته قوية ،وجسده نشيطاً، شعره جافاً وخشناً ، وبفتلات تنتهي بحد مرسوم على جبينه . وثمة فوق

عينه اليسرى أثر لجرح منحنٍ خفيف سببته له ضربة ماعز برية . كانت الماعز تركض خلف أحد الأولاد الرعاة . واذ شاهد واياكي ذلك تناول عصا وهرع خلفها صائحاً . استدارت نحوه ونطحته بقرنيها. فأحدثت في جبينه جرحاً عميقاً ، ساعتها وصل والده وأسعفه . ومنذ ذلك اليوم غدا واياكي بطلاً بين الأولاد رغم انه ركض خلف الماعز من أجل المزاح والمتعة . لكن هذا لم يكن السبب الوحيد الذي يفسر تبعية الأولاد والصبية والفتيان الفورية له .

كان والده تشيغي من الرجال الاكبر سناً المشهورين في تل كامينو . له الآن زوجة واحدة انجبت له العديد من البنات وولداً واحداً . أما زوجتاه الاخريان فقد توفيتا اثناء المجاعة الكبيرة دون ان تنجب اطفالاً .

كان قد سبق المجاعة حصاد وفير . تلاه هجوم الجراد والدود والجفاف الطويل ، ليجلب الموت إلى الكثير من البشر . يومها نجا تشيغي بصعوبة . أما بناته فتزوجن كلهن ماعدا واحدة ماتت في وقت مبكر . كان الرجال الاكبر سناً الآخرون يخافونه ويحترمونه، لانه يعرف عادات الارض واشياء القبيلة الخفية أكثر مما يعرف سواه . كان يعرف معنى كل طقس ، وكل اشارة ، لذا كان في مقدمة اي طقس ذي شأن .

حول تشيغي رويت الكثير من القصص . قال البعض ان لديه موهبة السحر . وقال البعض الآخر كان متنبئاً، حتى ان مورنغو، إله الاجداد، كان غالباً مايتحدث إليه.وقالوا أيضاً ان بمقدروه ان يرى صور المستقبل مثل موغو واكيبيرو الذي تنبأ منذ زمن سحيق بغزو الرجل الابيض لريف غيكويو . وذهب البعض أبعد من ذلك ، فقال ان تشيغي كان يتصل فعلاً بموغو ، ولم يتأكد أي منهم . كما ان تشيغي نفسه لم يزعم

ذلك . غير انه أخذ يتكلم قليلاً ، محتفظاً بافكاره وتصوراته لنفسه ، منذ أن حذّر الناس من مركز سيريانا التبشيري ، ورفضوا الاستماع إليه . كان قد روى لأناس التلال ماحدث في مورانغا ونايبيري وكيامبو . روى لهم عن تومو تومو ، وغيكويو ، وليمورو ، وكيجابي . لكنهم ارتابوا بما قاله :

– وكيف عرفت ؟

– انظروا إليها ، انظروا إلى الفراشات .

– الفراشات ؟ أنت لم تغادر التلال !

– انها هناك خلف التلال . بعضها يشيّد المنازل ، وبعضها يستولي على الارض .

– وكيف تمكنت من رؤية النور خلف التلال ؟

– « حمقى ، حمقى » همهم في نفسه يائساً .

كانت نايروبي قد نشطت فيها الحياة قبل ذلك الحين . واخذت القطارات تمر عبر الريف إلى تلك المناطق البعيدة التي لم يصلها أي من سكان التلال . اخفضوا اصواتهم ، وتهامسوا فيما بينهم :

– « لايستطيع الرجل الابيض ان يتكلم لغة التلال . »

– « ولايعرف عادات الناس . »

لكن الرجل الابيض وصل إلى سيريانا ، وحوّل جوشوا وكابوني إلى الدين الجديد ، فهجرا عادات التلال . واستمر الناس يهزون اكتافهم استهجاناً ، ثم مضوا يتهامسون :

« مَنْ يستطيع مِنْ الخارج ان يشق طريقه بين التلال ؟

وقتها كان تشيغي شاباً ، أما اليوم فهو كهل . لكنه حين يتذكر

شيئاً ما حدث في السنوات الماضية يشع ضوء في عينيه ، وتبرق فيهما ومضة أمل . ومنذ ذلك الحين احتفظ تشيغي بمعرفته لنفسه ؛ ولم يعلنها إلا للرجل المناسب .

لم يرد الفتيان أن يدركهم الظلام . لذا جمعوا قطيعهم على عجل معاً وعادوا باتجاه أكواخهم . ثمة طرق عديدة تمر عبر الغابة ، تؤدي إلى الاكواخ المختلفة المتناثرة فوق التلال . فاذا لم تكن منتبهاً فستضل طريقك بين التلال ببساطة . ذلك ان أي جزء من الغابة كثيراً مايشبه الجزء الآخر . لكن الفتيان الذين ولدوا ونشأوا هناك كانوا يعرفون اسرار الطرقات .

كان الظلام يهبط شيئاً فشيئاً عندما وصل واياكي إلى البيت . كان والده ينتظره . دعاه الى كوخه . جلس الأب على مقعد بدون مسند ، واتكأ على عمود الكوخ الوسطي . كانت النار تشتعل خفيضة في الموقد . حين دخل واياكي الكوخ ، ووقف قرب الباب ، تناول تشيغي عصا على مقربة منه وسعّر النار ببطء ، فتطاير الشرر إلى الاعلى في متوالية متسارعة .

ـ لماذا تعود عند حلول الظلام ؟ ـ سأله تشيغي أخيراً دون ان يرفع رأسه ، وبصق على الارض .

ـ أخذنا الابقار إلى السهول .

ـ السهول ؟

ـ نعم ياأبي .

وقال الاب بعد صمت قصير :

ـ انه مكان بعيد .

لم يتكلم واياكي . انه دائم الارتباك امام والده . وقال الأب :

ــ الخطر يكمن في الظلام .

ــ نعم ياأبي .

أحس واياكي بالارتباك ثانية ، القى نظرة سريعة على الباب . كان الأب مايزال خافضاً رأسه . وسأل :

ــ من دلّك على الطريق ؟

ــ أنا أعرف كل الطرق في التلال ــ . اجاب متفاخراً كي يلغي احساس والده بخوفه المكبوت عليه . اضافة إلى ذلك فان واياكي لايحب أن يرى نفسه فتىً ، بل يحب ان يرى نفسه رجلاً قادراً على اتخاذ القرارات .

نظر تشيغي إلى ابنه . تأمله برهة . حاول واياكي ان يخمن مايفكر به والده . وعلى الفور خطر له ان والده كان قلقاً وخائفاً عليه ، فطمأن قلبه شعورٌ بالفخر وتساءل في سره عما اذا كان الفتيان الآخرون ، يفتخرون بأب كأبيه .

ــ اذن ، فأنت لم تأكل . ــ رقّ صوت تشيغي .

ــ لقد جئتُ الآن .

ــ اذهب إلى امك واطلب منها طعاماً ، فأنت جائع حتماً .

تحرك واياكي . واذ اصبح على وشك الخروج من الكوخ ، ناداه والده ، وطلب منه ان يعود . ارتجف واياكي بعض الشيء .

ــ تذكّر يوم غد هو يوم ولادتك الثانية .

ــ نعم ياأبي .

ــ لاتنس . ــ قال تشيغي دونما حاجة لتأكيد .

هرع واياكي إلى كوخ أمه . كيف يمكنه ان ينسى حدثاً كالولادة الثانية !



الفصلُ الثّالِث

ديمي وماثاني ، رجلان من عمالقة القبيلة ، عاشا في زمن بعيد ، في البدايات الاولى للزمن . كانا يقطعان الاشجار ، وينظفان الغابات الكثيفة ، استعداداً لفلاحتها . كانا يملكان الكثير من الابقار والاغنام والماعز ، ويقدمان القرابين إلى مورنغو ، ويتصلان بأرواح الاجداد . كان واياكي قد سمع بابني القبيلة هذين . وافتخر بهما. وكم تمنى ان يعرف ملامحهما واوصافهما . لابد انهما كانا كبيرين وقويين للحد الذي تمكنا من مواجهة مخاطر الغابة بشجاعة .

أحياناً كان واياكي يلعب مع الفتية الآخرين لعبة ديمي وماثاني . وذات يوم قال له احدهم ، من تل كوينا :

– لايمكنك ان تكون ديمي .

– لماذا ؟ – سأل واياكي . كان الفتية يتحلقون حولهما .

– لأنك لم تتهيأ للختان ، لأنك لم تولد بعد ولادة ثانية .

نظر واياكي إلى الارض ، وأحس انه مايزال صغيراً . عندها استدار نحو الفتية ، وترك اشعة عينيه تسقط عليهم . كانت عينا واياكي واسعتين براقتين ، حزينتين ، متأملتين . ثمة شعاع يسطع منهما ، شعاع يبدو

كما لو أنه يخرق جسدك ، كما لو أنه يرى شيئاً ما خلفك، شيئاً ما في قلبك . ولا أحد من الرجال يعرف بأية لغة تنطقان . كل ما في الأمر أنه حين يحدق فيك عليك ان تطيع . كانت نظرته نصف متوسلة ، نصف آمرة تبدو وكأنها تصر على تحقيق الشيء الذي تبغيه . وربما كان ذلك سبب طاعة الاولاد له . كانت امه دائماً تحوّل بصرها عنه عندما ينظر إليها .

واشارت بعض النسوة والفتيات إلى انه يجعلهن يشعرن بالخجل كلما نظر إليهن ، لكن النسوة يشعرن دائماً بالخجل حين تلتقي عيونهن بعيون الرجال . وايا كي لم يكن مدركاً لأي شيء غريب في عينيه ، رغم انه كان يحس احياناً بشيء ما يستعر في داخله يدفعه لأن يقول او يفعل اشياء جريئة .

ذلك اليوم شعر بالدافع يتأجج فيه ، وللحظة اعتقد نفسه ديمي وقال :

— انا ديمي .

وشاهد شجرة على مقربة منه « انظر وسترى كيف اقطع تلك الشجرة » . تناول فأساً واندفع ناحية الشجرة . وبوعي غائب انهال عليها بكل قوته حتّى تحطمت عصا الفأس وغدت اجزاء صغيرة . في البدء ضحك الفتيان منه ، لكنهم سرعان ماتبعوه ، واندفعوا مثله يقطعون الاشجار ، وينظفون الغابة ، ويهيئونها للزراعة ، تماماً كما فعل ديمي وماثاني .

عاد وايا كي إلى البيت وقال لأمه :

— يجب أن أولد من جديد .

هاهو يوم ولادته الثانية يأتي . عندما ارتفعت الشمس ، والقت اشعتها على الارض والماعز المستلقي المنتشر ازاء الجدار ، ذهب واياكي خلف الكوخ ، وعرّض عنقه للأشعة . كان الدفء مبهجاً . اراد أن يكون سعيداً ، سعيداً جداً . ألم يكن مقبلاً على تعلم العادات في تلك الارض ؟ ألم يكن مقبلاً على احتساء الطقس السحري للولادة الثانية ؟ كان يدرك انه يود أن يكون مثل أبيه . عارفاً بعادات الارض كلها منذ زمن بعيد .

لكنه شعر بالاكتئاب . شيء ما لم يستطع تحديده كان يقضم روحه ، ويتسلل إلى لحمه . تمنى ان يصطحبه كاماو او كنوثيا تلك اللحظة ، واستمر يتمنى ذلك .

حين لامست الشمس جلده تمسك بعضلاته بقوة ، واغلق عينيه محاولاً ان يسترد احساساً بالأهمية كان قد جرّبه ايام الانتظار . وكان التوقع عذباً . الآن لم يعد يهمه شيء . اذ ما ان ينقضي هذا اليوم حتى يكون مهيئاً لاكبر الطقوس : الختان ، الطقس الذي يعني اجتيازه لمرحلة الطفولة ، والدخول في عالم الرجال . عندها سوف يثبت شجاعته وروحه الرجولية .

خُمِّرت كميات كبيرة من البيرة . وراح يتوافد كثير من الرجال الاكبر سناً . ثمة اثنان منهم جاءا منذ الصباح الباكر ، وهاهما مشغولان بذبح معزى . ذلك ان جميع الحاضرين سوف يأكلون اللحم . وسوف تستحضر أرواح الاموات والاحياء لتسهم في الطقوس .

عادة لايستغرق الطقس وقتاً طويلاً . كما انه ليس معقداً . هكذا تجلس امه قرب الموقد في كوخها كما لو انها تؤدي عملاً مألوفاً . يجلس واياكي بين فخذيها . يُقتطع حبل رقيق من المعزى الذبيحة ، ويربط

إلى بطن أمه بمثابة الحبل السري، وتأتي عجوز تمثل القابلة فتقطع الحبل .
ويبدأ الطفل بالصراخ أما المرأة التي تنتظر الوليد فتهتف بمرح.

آلي — لي — لي — لي — لي — لي — ليي
واياكي السابق يولد الآن
يولد ثانية ليحمل النار القديمة

نسي واياكي نفسه لبعض الوقت . وتخيّل ذاته ديمي ، ينظف الغابة بشجاعة ، وخلفه تعمل قبيلة بأسرها . لكنه حين تلفت حوله ورأى العجائز يحطن به ، أخذ يبكي ثانية مثل طفل صغير . أحس بألم الخوف في داخله . حاول ان يفتح عينيه على سعتهما . وللحظة تملكه احساس جنوني مفاجيء كوميض . إذ لم يتمكن من فتح عينيه . ارتجف وظن انه يجفل من شيء بارد لم يجربه من قبل . وراحت دموعه تتساقط على الارض استمرت النسوة بالهتاف لكنه لم يعد يشاهدهن . كانت اصواتهن تأتي إليه مثل أزيز بعيد ، كذلك الذي سمعه في حلم ، حين هاجمه سرب من النحل . ازداد بكاؤه ، فخشي الناس عليه ، فهذا مالم يحدث من قبل .

آخر النهار ذهبت امه إلى الحقل . فتبعها . كان حليق الرأس . مشى خلفها مثل طفل اعتاد ان يدرج خلف امه . وعندما اتجهت نحو نهر هونيا تبعها أيضاً . هناك أغطسته في الماء ، ثم خرج نظيفاً .

آوى إلى فراشه مبكراً . ألم غريب في احشائه . كان ذلك كله تجربة غريبة عنه . وشعر بالفرح لانتهاء الطقس . وثمة في مكان ما من داخله شع احساس بالفخر ، اذ أصبح مهيئاً الآن للانتقال إلى عالم الرجال .



الفصل الرابع

عاد واياكي سريعاً إلى إيقاع الحياة اليومية في القرية . ساق القطيع واعتنى به . نظمّ الغارات، وخرج للصيد، وشارك في الرقصات التي كانت تقام من أجل الفتيان ، وأحس بالفرح . كانت الايام تمضي ، والحياة تستمر بالوتيرة ذاتها . واحتفظت عيناه بنظراتهما القوية الثابتة . وقال بعض الناس ان هناك شيئاً ماشريراً في بريقهما . لكن والده كان له النوع ذاته من العيون ، ففي الوقت الذي أخذ فيه جسده يتشوه بالتجاعيد ظلت عيناه فتيتين ، مفعمتين بالحياة .

ذات مساء ، بعد أسابيع قليلة من ولادته الثانية ، دعاه والده الذي كان يميل إلى الاحاديث في كوخه الخاص . دخل واياكي بهدوء تام ، انه غالباً مايشعر بالارتباك في حضرة أبيه .

كان تشيغي جالساً في مكانه المعتاد قرب العمود الوسطي، بين الماعز والاغنام التي نامت معاً حوله باعثة شخيراً خفيفاً. « إجاس » قال تشيغي. واشار إلى مقعد بأربع قوائم دون مسند ، بجوار نعجة ضخمة كانت تنام قريباً جداً من الموقد . لكز واياكي النعجة في اضلاعها بقدمه اليسرى علّها تفسح له مكاناً يجلس فيه . لم تتحرك النعجة ، فاضطر إلى الجلوس بجانبها .

— إلى أين ستأخذ الأبقار غداً ؟

— إلى الوادي في نياما .

— هل سبق لك ان اخذتها إلى التلال في عمق جنوب كامينو ؟

تكلم تشيغي ببطء . وبصوت قوي هادىء تشوبه ارتعاشة خفيفة .

— كلا ، — اجاب واياكي بعد توقف قصير جداً . حاول ان يتذكر المكان .

وتساءل في سره عن سبب الاسئلة .

— هل سمعت بالأيكة المقدسة ؟

— نعم ، سمعنا عنها .

صمت تشيغي ، واقلق واياكي الفضول .

— اترك الابقار والماعز لدى امك ، فغداً سنذهب إلى التلال .

ظلام في الخارج ، نجوم قليلة انتشرت متباعدة في السماء . كان واياكي قلقاً . شعر انه مهيأ للبدء بالرحلة الآن . ماذا سيفعلان هناك معاً ؟ ماذا سيشاهدان ؟ ذلك سر ، سر رجل . ماالاشياء الخفية الاخرى التي كان والده يحملها في جسده الكهل ؟ تمنى لو أنه حدثه بالمزيد . لكنه سيعرف كل شيء غداً . وسيكون يوماً عظيماً ، فالرحلة ذات شأن . ركض نحو كوخ أمه . جلس هناك . وأحس انه كبير وهام .

* * *

ساروا سيراً مرهقاً . كان الطريق مجهولاً بالنسبة لواياكي ، اذ لم يسبق له ان ذهب بعيداً على امتداد نهر هونيا ، لكنه كان مطمئناً وهو يمضي خلف والده الذي قاده عبر متاهة من الاشواك الكثيفة والنباتات

لمتسلقة . كثيراً ماوقع في شرك النباتات والاشواك ، واحياناً كان يحرر نفسه منها بصعوبة .

هدوء تام . لايقطعه سوى ارتعاشات الماء التي كانت تصاحب وقع اقدامهما المنسابة . ومن حين لآخر كان تشيغي يتوقف كما لو انه يسمع شيئاً . وكان واياكي يتوقف ايضاً لكنه لايسمع أي شيء .

ترك تشيغي لعابه يسيل على صدره . انها طريقة قبيلة غيكويو في المباركة . ظن واياكي ان والده يبارك النهر . تبادلا كلمات قليلة . واذ كان تشيغي يتوقف قرب شجرة أو أجمة معينة ، كان واياكي يدرك ان والده يود ان يفسر له شيئاً .

ــ لحاء تلك الشجرة مفيد للجرح الجديد .

ــ جذور هذه النبتة مفيدة . حين تؤلمك بطنك ، اغلِ بعضاً منها في الماء واشرب السائل .

واحياناً يحذره من تلك الشجرة التي « تمتلىء ثمارها بالسم » . شعر واياكي انه قريب من والده كما لم يكن من قبل ، وتوهج قلبه . ألم يشرب من يقطينة الثقة والمسؤولية ؟ حقاً كان واياكي ناضجاً ، وهاهي اشياء التلال الخفية قد بدأت تتكشف امامه .

اجتازا الوادي . واخذا يتسلقان المنحدرات مارين بحجر هنا ، وشجرة هناك . كان واياكي مندهشاً من أبيه الذي بدا محافظاً على توازن سيره ، بينما هو يركض لاهثاً . وهما في طريقهما أفزعا ظبياً من مكانه الخفي ، فوثب مذعوراً . كان واياكي يحب الظباء ، ويحس دائماً برغبة لأن يلمس اجسادها الملساء الناعمة .

ـ الظباء ترى الرجال وتهرب !

ـ لماذا ؟ ألا تهرب من رؤية النساء ؟ ـ تساءل واياكي حائراً .

الغابة هادئة، لذا كان بوسع المرء ان يسمع ارتعاشات الماء المتلاشية.

ـ انت لاتعرف ذلك ! منذ زمن بعيد حدث ان حكمت النساء هذه الارض ورجالها . كانت النساء قاسيات فاستاء الرجال من قبضتهن القوية . وحين حبلت النساء قام الرجال بجميعهم واطاحوا بهن . قبل ذلك كانت النساء تملك كل شيء.والحيوان الذي رأيته كان ماعزهن. ولأن النسوة لم يكن قادرات على قيادتها هربت الماعز . اذ ادركت ان المرأة مخلوق ضعيف فلماذا تخشاه .

عندها ادرك واياكي سبب عدم امتلاك أمه لأي شيء .

وصلا إلى القمة . وجدا طريقاً مألوفاً بدا كانه لم يُسلَكْ منذ وقت طويل ، واتبعاه . امامهما تل صغير يقوم وحيداً ، فلمحا المكان المقدس فوق قمته . ارتج قلب واياكي . واحس انه متلهف وخائف في الوقت ذاته .

عند حافة التل تقوم شجرة موغومو * ضخمة . انها شجرة هائلة الحجم ، كثيفة وغامضة . حولها نما الدغل وانحنى بجلال . هناك ايضاً تنهض الشجرة القديمة شامخة فوق التل ، ترقب من موقعها الريف كله ، شجرة مقدسة تبعث الرهبة في النفس . هيمنت على روح واياكي لدرجة شعر معها انه صغير جداً ، وفي حضرة قوة عظيمة . انها شجرة مورنغو إله الاجداد .

---

* شجرة تين بري مقدسة . في ظلها تقدم القرابين إلى إله الطبيعة نغاي وهناك اشجار اخرى مماثلة ، غير ان الكثير منها قطعة الاوربيون عند احتلالهم ارض غيكويو .
ـ المترجم ـ

وقف واياكي فوق قمة التل ، في الجانب الآخر من الشجرة . نظر إلى الارض نظرة شاملة . أحس كأن قلبه سيتوقف تحت وطأة سعة الارض . بدت سلاسل التلال مسطحة تحت قدميه الصغيرتين . في جهة الشرق كانت الشمس قد اشرقت . و كان بالامكان رؤيتها بوضوح مثل كرة حمراء كبيرة بألوان مضببة . وثمة خيوط ضوئية دقيقة حمراء مصفرّة تنطلق من مركز الاشعاع وتلتحم بالضباب الرمادي الذي يوصل الارض بالغيوم . أبعد من ذلك كانت حافة جبل كيرنياغا تتأرجح بين السحب البيضاء . وكانت قمته المغطاة بالثلوج تومض قليلاً فتكشف مركز الإله مورنغو .

من هناك رأى التلال تغط في نومها . ولم يعد كامينو وماكويو عدوّين ، انما اندمجا في بقعة واحدة من أرض جميلة . وربما هذا هو ماأريد لهما أصلاً .

حين يقف المرء فوق تل الإله يرى سلسلتي كامينو وماكويو والسلاسل الاخرى تستلقي بسلام ، وليست هناك أية علامة للحياة .



الفصل الخامس

قبل ان تثير مشاعره سكينة الصباح، كان تشيغي قادراً على الكلام.

ـ هل ترى كل هذه الارض . هذا الريف الممتد الملتحم بالسماء ؟
قال بصوت عميق هادىء . وأدرك واياكي ان صوت أبيه كان مثقلاً بمشاعر عنيفة . و همس :

ـ نعم .

ـ انها جميلة للنظر . . . .

ـ انها جميلة .

ـ وفتية وخصبة . . . .

ـ أجل ، فتية وخصبة .

ـ كل هذه الارض هي ارضنا .

ـ أجل ياابني .

ـ انت تعرف غيكويو وزوجته مومبي . . .

ـ أب وأم القبيلة .

كان تشيغي وابنه يتكلمان كأنهما في حلم طويل .

ـ هل ترى ذلك الجبل الذي يظهر من خلال الضباب الرمادي فوق الافق ؟

كير نياغا ؟

— نعم . انه جبل مورنغو الذي يشرق بالقداسة .

صمت تشيغي ، بينما استمرت نظرته الثابتة . ثم قال :

— ذلك هو مركز مورنغو . مورنغو الذي كوّن غيكويو وومبي —

— نعم . — همس واياكي .

— أوقفَهما فوق ذلك الجبل واراهما الارض كلها .

— نعم . — همس ثانية همسة لايمكن سماعها بوضوح ، بينما اكتسب صوت والده نبرة سحرية .

— ومن ذلك الجبل جاء بهما إلى هنا .

كان تشيغي يقف خلف ابنه على بعد خطوتين . نظر عبر السلاسل . نظر عبر التلال . ثم ركز بصره في الفضاء المحيط كمن في حلم . ربما كان يرى شيئاً لايراه واياكي . ضيّق واياكي عينيه لكنه لم يتمكن من رؤية اي شيء . ومع انه خشي على ابيه الا أنه أصبح أقوى مما كان بسبب الكلمات التي تدفقت من فم ابيه العجوز . استمر الأب في الكلام لكنه كان يكلّم نفسه أكثر مما يكلّم واياكي ، معبراً عن افكاره ومشاعره بصوت عال ، وبينما كان صوته يضيع في الهواء كان تشيغي يكتسب مظهراً وقواماً رفيعين للحد الذي اعتقد واياكي ان هيئة ابيه قد تبدلت إلى هيئة اخرى بهية .

— منذ وقت طويل ، منذ بدايات الاشياء الاولى ، حدث ان جاء مورنغو بالرجل والمرأة الى هنا. واراهما سعة الارض ثانية. ومنحهما الريف ، لهما ولنسلهما : فالحياة لاتنتهي ، اترى ماذا هناك ؟

لم يتأكد واياكي من ان السؤال الأخير كان موجهاً إليه ، ومع ذلك رفع رأسه فشاهد والده يشير إلى شجرة الموغومو والدغل الكثيف الملتف من حولها .

— انه مكان مبارك ومقدس . هناك ، حيث وطأت اقدام مومبي نبتت ونمت تلك الشجرة . وهكذا ترى ان تل كامينو هو الذي ساعد أب وأم القبيلة . من هنا أخذهما مورنغو إله الاجداد ، ووطنهما في منطقة موكورووي واغاتانغا في مقاطعة مورانغا ، فأنجبا تسع بنات أنجبن بدورهن الكثير من الاطفال الذين انتشروا في جميع ارجاء الريف وجاء قليل منهم إلى التلال لحفظ وحماية الشعائر القديمة . . .

حوّل الرجل العجوز بصره نحو ابنه ، ونظر إليه .

— انت هنا ! . . . . . .

— جئت معك ياأبي . — ارتبك واياكي . كان على وشك ان ينفض عن نفسه سطوة السحر .

— اعرف . اعرف . — قال بصبر نافد — اذن ، فهمت ان غيكويو ومومبي قد وطأت اقدامهما هذا المكان !

— نعم .

— أما أنت فقد انحدرت من اولئك القليلين الذين جاءوا إلى التلال .

صمتا معاً . ولم يفهم واياكي ماكان يعنيه والده .

— هل سمعت بموغو واكيبيرو ؟

— نعم .

— كان متنبئاً . . . رأى اشياء . . . . كان المستقبل ممتداً امام

ناظريه . . . ولد وتربى في كامينو قبل ان يغادره ليروي للناس مارأى . رأى فراشات كثيرة ، بألوان متعددة ، تطير حول الارض ، وتقلق حياة الريف المنظمة الهادئة . يومها صرخ بأعلى صوته : « سيأتي أناس بملابس كالفراشات » ولم يصدقوه . بل سخر بعضهم منه ، وضحك عليه . وقالوا : « انه لايبدو طبيعياً » . ولم يستمعوا لصوته الذي حذرهم . « احترسوا » لكنهم رفضوه، وكفوا عن اعطائه الملابس والطعام . تألم كثيراً ، واخفى نفسه رافضاً اخبارهم بالمزيد . بعد ذلك غادر إلى ماوراء التلال ، إلى العالم الأبعد ، إلى ابعد مدى في ارض غيكويو . ولم يكن يائساً ، فنشر رسالته هناك بصوت اعلى ، وضحكوا عليه ايضاً . وسخروا منه . أما هنا في التلال فقد ظنوا انه مات. الا أنه عاد متنكراً واقام بيننا.

صمت تشيغي برهة كما لو انه يستجمع انفاسه . ومضت عيناه كأنما بسطوة داخلية ، ثم قال ببطء :

— نحن ذريّته ، دمه يجري في عروقنا .

سكن واياكي مثل أبكم . ذلك ان أدراكه لكونه سليل هذا المتنبىء الشهير ، الذي كان قادراً على رؤية المستقبل ، قد ملأه باحساس كبير بالدهشة . فلم يكن بوسعه ان يتكلم . ثمة كلمة وحيدة فرّت من فمه هي « ها » . واستمر والده قائلاً :

لقد مات هنا . واباؤنا لايعرفون أين قبره . لكن بعضهم قال ان مورنغو حمله إلى السماء .

توقف تشيغي ، وبهدوء التفت إلى ابنه الذي كان يرتجف .

— أراك خائفاً . يجب ان تتعلم مواجهة الخوف . . . الخوف . .

انهم لم يرفضوا موغو وحده فقط . فأنا حين اخبرتهم عن سيريانا * لم يستمعوا إلي أيضاً .

ولأول مرة شعر واياكي انه خائف فعلاً ، واستحوذ عليه رعب مجهول راح يقاومه .

ـ لاشك انك تتساءل عن السبب الذي يدعوني لإخبارك بكل هذا..

أراد واياكي ان يصرخ « لاتخبرني بالمزيد . لاأريد ان اسمع أكثر مما سمعت . لا . لا . لا . ياابي » . لكنه بدلاً من ذلك همس بكلمة واحدة :

ـ نعم !

ـ لأنك آخر شخص في ذرّية موغو واكيبيرو .

شعر واياكي كأن غيمة ثقيلة تضغط على روحه وتدفعها إلى الاسفل. وثمة إحساس غريب ينبىء بارتباك ما في احشائه ، احساس كما لو انه شيء ما حدسي يندفع نحوه بكل سرعته ، بينما هو عاجز عن فعل اي شيء لإيقافه .

وقال والده برقة :

ـ أجلس .

كانت ساقاه منهكتين . فتهاوى على العشب .

ـ ربما انت متعب . ـ قال تشيغي وهو يقترّب من ابنه . أوقف واياكي ارتجافه ، وندم لاظهاره الخوف ـ وكرّر تشيغي ماقاله ببطء:

* مركز البعثة التبشيرية في غيكويو . ـ المترجم ـ

ـ وهكذا حين شعر موغو بمرارة الألم لم يرغب باخبارهم المزيد .

وصمت مرة أخرى. كان وجهه ساهماً، وعيناه ساهمتين. وبدا كما لو انه يحاول ان يستعيد حدثاً موغلاً في القدم ، عصياً على الاستذكار . أصبح الآن خلف واياكي تماماً . انحنى ولمس كتف ابنه، فأحس واياكي بارتعاشة خفيفة في يد أبيه . سحب تشيغي يده بسرعة . ثم واصل كلامه بصوت اتضح ارتجافه :

ـ الآن ، اسمع يابني . إنتبه جيداً . لأن ماسأقوله لك هو النبوءة القديمة . . . لاأستطيع ان أفعل أكثر من ذلك . حين قدم الرجل الابيض واقام في سيريانا حذرتُ جميع الناس . لكنهم ضحكوا مني . ربما كنت متعجلاً ، وربما لم أكن الأول . كان موغو غالباً مايقول انك لاتستطيع اصطياد الفراشات بالبانغا * ، ولاتستطيع ان تقتلها الا اذا عرفت عاداتها وحركاتها ، عندها تستطيع ان توقعها في شراكك وتردها على اعقابها . وقبل أن يموت همس بالنبوءة في أذن ولده ، النبوءة القديمة :

« الخلاص سيأتي من التلال . من الدم الذي يتدفق في داخلي ، أقول من شجرة النسب ذاتها ، سيظهر فتى يقود الناس وينقذهم » ، ولم يقل أكثر من ذلك . أما الذين عرفوا النبوءة فكانوا قليلين . ربما كان كابوني الذي خان القبيلة هو واحد منهم . الآن اصبحتُ كهلاً ، وحياتي أوشكت على الانتهاء ، تذكر انك الأخير في أسرة موغو . انهض . انتبه إلى النبوءة . اذهب إلى مركز البعثة التبشيرية . تعلم كل حكمة واسرار الرجل الابيض ، ولكن عليك ان تتجنب عيوبه . كن مخلصاً لشعبك وللطقوس القديمة .

---

* البانغا : كلمة افريقية محلية تعني : سكين عريضة كبيرة حادة : تستخدم لقطع الاشياء القوية كمناقيد الموز ، كما تستخدم كسلاح . ـ المترجم ـ

— ابي . — صاح واياكي عندما شفي من الصدمة ، أحس انه صغير وضعيف ، ولم يكن يعرف ماذا يريد ان يقول .

— إذهب إلى هناك . أقولها ثانية . تعلم كل حكمة الرجل الابيض ، وتذكر دائماً ان الخلاص يأتي من التلال . يجب ان يظهر رجل وينقذ الناس في ساعة حاجتهم . سيريهم الطريق ، وسيقودهم .

— لكن . . لكنهم لايعرفونني ، فأنا طفل وهم الذين رفضوا موغو .

— دعهم يفعلون مايشاؤون . سيأتي وقت — اني آراه آتياً — يطلقون فيه صرخة الاستغاثة ، صرخة البحث عن مخلّص .

كان الوقت مساءً حين هبطا التلال . وصلا البيت منهكين . بالنسبة لواياكي بدت التجربة كلها حلماً . ماالذي كان عليه ان يفعله ذلك الطفل؟ أكان عليه ان يذهب عبر التلال ويصيح :

« اسمعوا ، سيأتي قائد من التلال لينقذكم » .

ولفترة قصيرة أخذ يشك بسلامة عقل والده ، فربما كان ذلك مجرد حلم رجل عجوز خرف . وكاد يضحك من الهيئة الجادة التي كان والده يلقي بها كلماته . لكن قلب واياكي كان خالياً من أي أثر للمرح . بل كان يشعر ان شيئاً ما ثقيلاً يدعوه لأن يكون رجلاً في وقت مايزال فيه فتى .

وجاء وقت اختفى خلاله واياكي من التلال دون علم احد سوى والده . لقد ذهب إلى سيريانا . وهناك التقى في آخر الفصل الأول ، وباعجوبة بكاماو وكنوثيا ، رفيقيه اللذين كانا يرعيان قطيعيهما معه . هكذا شاءت الصدفة ان يجتمعوا ويتعلموا من القس المبجل ليفنغستون في

مركز سيريانا التبشيري الذي اصبح الآن معهداً كبيراً . هناك ايضاً الكثير من الفتيان الذين جاءوا من التلال ومابعدها ، من كيامبو ، ومورانغا ، لينالوا حصتهم من سحر الرجل الابيض .

درسوا واجتهدوا لعدة فصول ، كشف خلالها واياكي عن تقدم ملحوظ ، للحد الذي أدهش رجال البعثة البيض ، فتوسموا فيه قائداً مسيحياً شجاعاً مقبلاً للكنيسة . ولكن من كان يعلم ان الاشياء تتغير بسرعة أكبر من تصور ليفنغستون ، ومن توقعات الفتى وأخيلته .



الفصل السّادِس

صباحات كامينو وماكويو باردة ، قارسة ، عادة . أحست نيامبورا بالبرد يقرص جلدها عندما جلست فوق صفيحتها المعدنية بعد أن ملأتها بالماء . ثبتت بصرها على اختها الشابة التي ماتزال تملأ صفيحتها ، ثم نظرت الى ماء النهر المعتم المصفر . انه يجري كما كان منذ سنوات محدثاً رنيناً لتدفقه المتواصل وهو يشق طريقه حول الصخور الناتئة . كانت نيامبورا مفتونة بالنهر ، منجذبة اليه ، يشرق صدرها بالفرح يرتفع وينخفض ، فتتنهد . أحسست بشيء غريب يخفق في احشائهـا ، انه انتعاش ، احساس بالابتهاج العنيف ، وبالألم الى حد ما ، ذاك الذي يأتيها كلما راقبت حركة النهر الافعوانية ، واصغت الى ارتعاشات مياهه .

أهمية نهر هونيا لايمكن ان تكون اهمية مبالغاً فيها . فالابقار والماعز والناس يأخذون جميعهم مياههم منه . وربما هذا مايفسر سبب تسميته بـ « الشافي » . وربما هذا ايضاً سبب تسمية الوادي بـ « وادي الحياة » .

خلال مراسيم الانتقال الى عالمي الرجال والنساء يأتي الفتيان والفتيات الى النهر ليبللوا اجسادهم في صباح الختان ، اذ اكتُشِفَ منذ وقت

بعيد ان الماء البارد جداً يخدر الجلد : فيجعله أقل ألماً اثناء العملية الجراحية . فكرت نيامبورا بذلك وشعرت بالذنب قليلاً . نظرت بقلق الى اختها التي مازالت تغرف الماء من النهر ، وتساءلت عما اذا كانت مثل هذه الافكار قد ساورت مرةً اختها موثوني . نفت نيامبورا تلك الافكار عن اختها ، وحسدتها ، ذلك ان نيامبورا قد ادركت وتعامت ان الختان خطيئة ، انه طقس وثني تخاصتا هي واختها منه . لذا فان ابنة الرب يجب ألا تدع فكرة الختان تتسلل إلى ذهنها . في هذا الموسم سوف تُرشَح الفتيات اللواتي بعمر نيامبورا إلى الختان . ولو لم يكن والدهما جوشوا رجلاً تقياً ، فمما لاشك فيه انه كان سيقدمهما كمرشحتين للانتقال إلى عالم النساء .

— نيامبورا . اختي !

افاقت نيامبورا من خيالها الشرير . كلمتها اختها موثوني . نظرت نيامبورا اليها وتساءلتْ عما يقلق موثوني . ماالذي كان يشرق في روح الفتاة الشابة ؟ كانت نيامبورا مقتنعة ان هناك شيئاً ما يعتمل في ذهن موثوني . فهي خلال الاسبوع الاخير ، او خلال الشهرين في الواقع ، كانت قد لاحظت شيئاً ما كئيباً ومقلقاً لدى الفتاة الصغيرة موثوني ، الامر الذي آلم نيامبورا . لقد كانت تحبها .

انهما دائماً معاً ، لاتنفصلان ، تلعبان وتعملان سوية . كانت نيامبورا اكبر سناً من موثوني ، ولكن ليس من السهل تأكيد ذلك . انهما طويلتان ، رشيقتان ، متشابهتان في الطول والنظرات ، الا ان بشرة موثوني كانت اكثر سمرة من بشرة نيامبورا . لهما ذات النظرات الحادة ، انما القلقة بشكل غريب . شعرهما اسود ، لامع ، كثيف ، خشن . لكنه يبدو للناظر ناعماً وجميلاً ، ويبعث على الرغبة في لمسه .

ملامح نيامبورا حادة آسرة ، وهي هادئة في طبعها بينما موثوني مفعمة بالحيوية . لذا لم يكن مدهشاً ان تلحظ نيامبورا تغيراً مفاجئاً في سلوكها . اثناء مجيئهما الى النهر ذلك الصباح كانت موثوني مستغرقة في افكارها اكثر من اية فترة مضت . وكانت نيامبورا قلقة جداً . ذلك ان محاولاتها في الايام السابقة لملاطفة اختها كي تفصح لها عما يشغلها قد باءت بالفشل . والآن تنتظر منها ان تتكلم . كانت موثوني تجلس فوق صفيحتها المعدنية . قالت :

ـ اريد ان أخبرك بشيء .

ـ آه ، ارجوك قولي . ـ اجابت نيامبورا بلهفة ، وبفضول حاد :

ـ لكن عديني انك تحتفظين بما اقوله في نفسك فقط . ـ كان هذا مناشدة . مناشدة من خوف تقريباً . وكادت نيامبورا أن تضحك ، لكنها لم تفعل ذلك بسبب الجد الذي ميز صوت ونظرات اختها .

ـ طيب ، اخبريني اولا . ـ قالت نيامبورا باهمال . ارادت أن تطمئن اختها . وان تخفف ملامح التوتر في وجهها . رفعت موثوني وجهها لنيامبورا وقد بدا توسلها واضحاً .

ـ لقد فكرت به كثيراً ، لم اتمكن من النوم او الطعام . أفكاري تروعني ، لكني اعتقد اني اتخذت قراري الآن . وتوقفت . حدقت في نيامبورا واكملت ببطء وهدوء :

ـ نيامبورا ، أريد أن أختتن .

ولثانية شعرت نيامبورا وهي جالسة ، كما لو ان افكارها ووجودها ومشاعرها قد اصيبت بالشلل . ولم تستطع ان تتكلم ، اذ كان الاعلان

مباغتاً جداً . وصاعقاً جداً . كيف يمكنها ان تصدق ماسمعته من فم موثوني ؟ . نظرت الى النهر . الى الاعشاب المائية المتأرجحة عند الضفتين وماخلفهما . لاشيء كان يتحرك في طريق الماشية الكبير الممتد عبر الغابة باتجاه كامينو . أشعة نور الصباح الصفراء كانت تمتزج في الغابة مسببة ظلالا طويلة على طريق الماشية . وكانت الحشرات تطلق اصواتاً متتالية تختلط مع ضجيج الماء المتساقط عميقاً في الوادي . لقد ساهم ذلك كله في تكثيف الصمت الذي خلقه اعلان موثوني .

— تختنين ؟ — أخيراً وجدت نيامبورا صوتها .

— نعم .

— لكن والدي لن يسمح بذلك ، سوف يغضب منك . ثم كيف يمكنك التفكير بالختان ؟

كان باستطاعة نيامبورا ان تتخيل غضب جوشوا حين يسمع بالأمر . واستمرت تقول :

— اضافة الى ذلك فانت مسيحية ، انت وانا نعتبر الآن واعيتين في نظر الناس البيض . لقد علمنا والدنا ما تعلمه من سيريانا ، وانت تعرفين ان المبشرين لايحبون ختان الفتيات . هكذا يقول ابي . فضلاً عن ان يسوع علمنا ان الختان خطأ واثم .

— اعرف . لكني أريد أن أختتن .

— لماذا ؟ — سألت نيامبورا بيأس .

انها تعرف جيداً أن والدها لن يصغي إلى مثل هذا الكلام . ان كل رجل من رجال الرب يدرك ان الختان طقس وثني . كما ان المبشرين

كانوا قد حذروا جوشوا منه مرات ومرات . لربما سكن الشيطان رأس موثوني . تلك هي الطريقة التي يعمل الشيطان بها. وحاولت نيامبورا ان تجادل اختها :

— ايه ، قولي . لماذا تريدين الختان ؟ أنت تعرفين انه من عمل الشيطان الذي تدركين كيف يغوي البشر. نحن مسيحيون . ألم يمض على تعميدنا زمن طويل ؟ ألست متخلصة من الخطيئة ؟

انفعلت نيامبورا ، واخذت تتنفس بصعوبة ، وتحس بحرارة في داخلها . كانت تدافع عن شيء ما ، تحاول انقاذ أختها .

— اعرف ، لكن . — صمتت موثوني . لم تكن قد رأت أختها هكذا من قبل . لم ترها بذلك اللمعان في عينيها . شعرت بوهن في ساقيها ، وفكرت أنها مخطئة . لكنها في اللحظة التالية قفزت واندفعت نحو أختها ، وتكلمت بجد وانفعال ، لأنها كانت موقنة تماماً بما هي عازمة عليه .

اشتبك ساعدا نيامبورا بساعدي موثوني ، وظلتا هكذا كطفلين صغيرين . تنبهت نيامبورا إلى الانفعال في صوت موثوني ، فتكلمت برقة :

— أبي وأمي . . . . .

وقاطعتها موثوني :

— افهمي ، ارجوك . اريد أن أكون امرأة ، اريد أن أكون فتاة حقيقية ، عارفة بعادات التلال .

— لكن ابي ، تذكريه .

— لماذا ؟ هل نحن حمقى ؟ — هزت نيامبورا اختها — أبي وأمي مختونان ، أليسا مسيحيين ؟ الختان لم يمنعهما من أن يكونا مسيحيين . انا

أيضاً اعتنقت عقيدة الانسان الابيض ، ومع ذلك أدرك انه سيكون شيئاً جميلاً ، شيئاً جميلاً الانتقال إلى عالم النساء . انت تعرفين عادات القبيلة . اجل . إله الانسان الابيض لايقنعني تماماً . احتاج شيئاً أكثر ، حياتي وحياتك هنا في التلال ، ذلك مانعرفه نحن ، انت وانا .

نظرت موثوني خلف نيامبورا كمن ينظر إلى أناس آخرين ، ثم خفضت صوتها وهمست سراً :

ـــ قال ابي هناك رجل في البعثة ـــ ليفنغستون ـــ له الكثير من النساء ، زوجاته . هل تعتقدين انه يتزوج من امرأة ليست مختونة ؟ من المؤكد انه لاتوجد قبيلة ليست مختونة . ثم كيف تكبر فتاة لتصبح امرأة ؟

تحررت موثوني من قبضة اختها . نهضت وحوّلت بصرها عن نيامبورا . التي لم تقل شيئاً . ولم تتابع منطق او خط سير أفكار موثوني ، كما انها لم تكن قد فكرت بمثل هذا العمق في اشياء كهذه . كانت قانعة بأن مايقوله والدها هو الصواب . فتتبعه . وكانت تخشى غضبه . استدارت موثوني ثانية وتمسكت بأختها متوسلة بعينيها وجسدها :

ـــ أرجوك يااختي لاتخبري ، لاتخبري أبي .

وبكتا معاً . رقّ قلب نيامبورا ، وشعرت بالعطف على اختها ، وتمنت فعلاً لو انها تستطيع مساعدتها ، لكنها أحست بعجزها بقوة .

ـــ كيف ستحضرين المراسيم ؟

ـــ سأحضر سراً . ولن يعلم أبي أو أمي ، لكني لاأعرف اين أذهب .

حاولت نيامبورا ان تساعدها :

— عمتنا التي تعيش في كامينو .

— أوه ، نعم . لقد فكرت بذلك ، سأذهب إلى كامينو واظل معها حين تبدأ الطقوس .

ماالذي تستطيع نيامبورا ان تفعله أكثر من ذلك ؟ حاولت ثانية ان تعترض على اختها ، ولكنها لم تحقق اية نتيجة . في اعماقها كانت تدرك أن موثوني اذا صممت على شيء فمن الصعب ان تجعلها تتركه . لقد ورثت هذه الروح العنيدة من ابيها جوشوا ، الرجل الذي اذا قرر شيئاً فمن العسير ان ينحرف عنه .

كان نهر هونيا يجري . والحشرات كانت تواصل اصواتها المتوالية المختلطة مع تساقط مياه النهر . وغدا المشهد برمته مخيفاً بالنسبة لنيامبورا ، فلم تعد متلهفة كما كانت عند مجيئها للنهر . حتى ان دفء شمس الصباح لم تتمكن من ايقاظها من سهومها . كانت تحب اختها . وشعرت بالاضطراب لأنها تستطيع ان تحدس ماسيحدث .

حملتا صفيحتي الماء . واخذتا ترتقيان طريق التل المؤدي إلى بيتهما في ماكويو ببطء . فجأة سمعت نيامبورا آهة خفيفة ندت عن اختها . وبسرعة التفتت إليها ، فرأت فزعاً في وجهها . كانت صفيحتها تتدحرج على المنحدر عائدة إلى الاسفل . اذن عليهما ان تعودا إلى النهر . « فأل سيء » ، فكرت نيامبورا .



الفصل السابع

رجال ونساء تل ماكويو كانوا قد نهضوا وشرعوا باداء اعمالهم اليومية الصباحية ، حين وصلت الفتاتان اللتان تنوءان تحت ثقل صفيحتي الماء على ظهريهما ، إلى البيت . على امتداد التل ثمة دخان أزرق كثيف يرتفع ملتوياً إلى الاعلى منبعثاً من الاكواخ ذات الجدران الطينية ، المتناثرة التي تؤلف القرية . هناك نسوة لم ينهضن مبكراً كما يبدو ، اذ كن في طريقهن إلى النهر لجلب الماء ، بينما انتشرت هنا وهناك قطعان الابقار والماعز التي يسوقها اولاد صغار . كانت تمشي بتثاقل في كل الاتجاهات .

ثمة تماثل عام بين جميع البيوت الممتدة فوق التل . فهي تتألف من مجاميع من أكواخ مدورة مسقوفة بالقش . كل مجموعة مكونة من ثلاثة أو أربعة أكواخ ، وسياج من اشجار يحيط ببيت كل اسرة ، ماعدا بيت جوشوا الذي كان مختلفاً . انه مبنى مستطيل الشكل بسقف من صفيح . متميز بوضوح ، وحيداً فوق التل . كان السقف قد تساقط منه بعض الصفيح ، فنفذت منه مياه الامطار ، لذا كان من الممكن رؤية قطع قليلة من الحيش تغطي الاجزاء التالفة من قمة السقف . ربما يشير تميز المبنى إلى أن عزلة ماكويو القديمة عن بقية اجزاء البلاد قد تلاشت الآن ،

مع انه ليست هناك بلدة قريبة حتى ذلك الحين . فنايروبي ، تلك البلدة المجهولة بالنسبة لساكني التلال ماتزال بعيدة . لكن سيريانا هي البلدة الأقرب : انها مساحة كبيرة تضم مستشفيات ومدارس مزدهرة يذهب إليها الفتيان والفتيات من جميع ارجاء الريف . ومع ذلك فالمبشرون لم يخترقوا التلال بعد ، رغم انهم ارسلوا عدداً من المريدين للعمل هناك . اذ ظل الناس محافظين ، يتبعون عاداتهم ، عادات الارض . كان ليفنغستون يقوم بزيارات للتلال من حين لآخر ليمد اتباعه المختلفين بطاقة وحياة جديدتين . غير ان عمله الرئيسي كان جوشوا يقوم به .

في ذلك الوقت كان جوشوا ، والد نيامبورا وموثوني ، متوسط العمر . وكان يعظ الناس على الدوام بنبرة جرسية حادة تنطق بالقوة والمعرفة . كان هو وعدد قليل آخر من الاوائل الذين اعتنقوا الدين الجديد . وقتها كان شاباً ، ترك التلال ، واقام مع الرجل الابيض في مركز البعثة الذي كان قد تأسس حديثاً . لقد خاف من انتقام التلال ، من غضب اصدقائه الذين اعتبروه خائناً . في سيريانا وجد الملاذ وسلطة الرجل الابيض وسحره . تعلم القراءة والكتابة ، وتغلغل الدين الجديد في اعماقه حتى تملكه كلية . فهجر سحر القبيلة وسلطتها وطقسها ، واستغرق في الدين الجديد ، فأحس بالحضور العميق للرب الواحد . ألم يهب جهوده للرجل الابيض ؟ لقد تحدث بما قيل في يسوع .

انظر ، العذراء ستحمل
وتضع ولداً .
وستدعوه عما نوئيل

أدرك جوشوا جهل ناسه في التلال ، كما أدرك عمق الظلام الذي

يعيشون فيه . رأى الماء العكر الذي كانوا يخوضون فيه غير مبالين بالقذارة والطين . كانوا يعبدون مورنغو ، وموينيناغا ، ونغاي . أما الرجل الأبيض ، المعصوم ، فكان يسمي إله غيكويو ، أمير الظلام .

كان أشعيا ، عرّاف الرجل الابيض قد تنبأ بيسوع ، بمجيء المسيح . هل تكهن موغو واكيبيرو ، متنبىء غيكويو بمجيء مخلّص كهذا .

كان أشعيا عظيماً ، حدثهم عن يسوع ، مخلّص العالم .

اولئك الذين ينكرونه هم اطفال الظلام

اولئك ابناء وبنات الشيطان

سوف يلقى بهم في الجحيم

وسيحرقون ، ويحرقون إلى الأبد ، في عالم سرمدي .

تلك الكلمات العنيفة أخافت جوشوا ، وهزت جسده كله ، هزته حتى جذور وجوده . ومن ثمَّ عُمِدَّ ، عندها فقط شعر بالاطمئنان وتوقف ارتجافه .

أحس بالسعادة تغمره ، وتشع في روحه . لقد نجا من الجحيم . وشعر بأنه مخلوق جديد . وهذا ما كان يقوله دائماً في البيت وفي الكنيسة . اذا تبنى أي شخص المسيحية فهو مخلوق جديد .

تطهر ثانية ، وغدا واعظاً شجاعاً ، متحرراً من الخوف ، ولم يعد يخشى تشيغي . او ماستقوله له او تفعله ضده التلال وساكنوها . فعاد إلى ماكويو ، وراح يلقي عظاته بعنف وغضب لدرجة أدخل الرعب في نفوس مستمعيـــه القدماء . قليلون هم الذين رفضوا وقاوموا ذلك

الصوت . وكثيرون حضروا عظاته ، فتحول بعضهم إلى الدين الجديد .
لقد ابتهجوا معاً ، وسبّحوا باسم الله .

لكن بعضهم عاد إلى الشراب ،وإلى الرقص أثناء الطقوس القبائلية ، وإلى الختان أيضاً . ويوماً بعد يوم غدا جوشوا حانقاً ، وراح يشجب بقوة مثل هذا السلوك . فربما لم تتجذر الكلمة في اعماقهم . جوشوا نفسه كان صارماً ، وراقب الكلمة حرفياً .

كان الانتظام الديني في عائلته حازماً . اذ أراد جوشوا ان يكون مثلاً للجميع ، ضوءاً مشعاً ينير الطريق ، حجراً يخطو فوقه الضعيف في طريقه إلى المسيح .

كان جالساً خارج البيت عندما جاءت الفتاتان ، أنزلتا الصفيحتين .
نظر إليهما ، إلى الطريقة التي يعملان بها ، إلى توحدهما فشعر باعتداد الأب وافتخاره . اراد لبيته اساساً دينياً متيناً ، اراد أن يتعمق اخلاص بنتيه ، ان يتبعا سبيل الرب . ألا يثبت ذلك للجميع اي بيت مسيحي بيته !

لم تكن سنة اعتيادية . كانت مواسمها غنية ، جُمعت خلالها الذرة ، والفاصولياء ، وأدُخرت للمستقبل المجهول . كان الناس سعداء ، وثمة الكثير من البهجة في كل مكان . وكانت مجموعة المسيحيين في ماكويو تذهب معاً وتصلي للرب .

اجتمع الرجال الاكبر سناً في تل كامينو وكل ارجاء ريف الأسود النائمة . وقدموا القرابين إلى مورنغو تحت الشجرة المقدسة . الا أن هذا لم يكن سوى مقدمة للعديد من الطقوس التي ستؤدى ليس فقط من قبل اتباع جوشوا في التهيئة لعيد الميلاد، بل من قبل جميع الفتية والفتيات المرشحين لمراسيم الانتقال إلى عالمي الرجال والنساء .

كان جوشوا مناهضاً لتلك الشعائر خاصة ختان النساء الذي بدأ يتخذ مغزىً جديداً في العلاقة بين ماكويو وكامينو . وكان التساهل في هذا الطقس ذنباً لايغتفر . ألم يقل انه سيتبنى كل شيء ماعدا مصر ؟ سوف يبحر إلى الارض الموعودة بشجاعة كجندي مسيحي . ولن يثنه عن تنفيذ هدفه أحد. لقد أراد أن يدخل القدس الجديدة كرجل بمعنى الكلمة.

والحق ان جوشوا كان يرى الختان إثماً كبيراً ، للحد الذي كرّس صلاة مخصصة لهذا الطقس، سائلاً الرب ان يغفر لهزواجهمن امرأة مختونة.

أيها الرب ، انت تعرف انها ليست غلطتي ، ايها الرب
لم يكن بمقدوري ان أفعل غير ذلك ،
لقد وافقت حين كانت في مصر .

أحياناً ، عندما يختلي بزوجته ميريامو ، ينظر إليها ، ويقول بحزن : « اتمنى ألا تكوني قد مررت بهذا الطقس » .

وميريامو لم تكن تشارك زوجها عواطفه او تتعلق بها . الا أنها تعرفه . جوشوا رجل مخلص للرب ، مؤمن بالعهد القديم بقوة ، لذا فهو لايتورع عن معاقبة الخطيئة حتى لو تطلب ذلك ضرب زوجته ، ولا يهتم لذلك طالما كان ينفّذ عدالة الرب

طوال ذلك العام لم تمض الأمور على نحو حسن مع جوشوا . وسكان تل كامينو كانوا قلقين ، اذ اعتقدوا ان جوشوا هو المسؤول عن الرجال البيض الذين أخذوا يفدون باستمرار إلى التلال تلك الأيام.وسرت اشاعات تقول ان مخفراً حكومياً سيبنى قريباً في ماكويو، وستحكم التلال من هناك.

في آخر زيارة قام بها لسيريانا ، أعلن له أحد الرجال البيض ان الناس في التلال سوف يدفعون ضرائب إلى حكومة في نايروبي . يومها هزّ الناس أكتافهم جاهلين معنى الضرائب . ومع ذلك لاموا جوشوا على التدخل في شؤونهم .

لم يعبأ جوشوا بذلك ، كان يعرف ماذا تعني الحكومة ، اذ استفهم عنها من ليفنغستون . وكان مدركاً أن واجبه كمسيحي هو ان يطيع الحكومة ، ان يعطي ما لقيصر لقيصر ، وما للرب للرب . وذلك ماكان يريد من كل مسيحي ان يفعله . ثم أليس الرجل الابيض أخاً له ؟ أكان الرجل الابيض مسؤولاً عن شرور الارض ؟ كلا ! انه العمى الذي أصاب الناس ، اولئك الناس لن يسيروا في طريق النور . انظر الآن إلى الاستعدادات والطقوس القائمة في كل ارجاء الارض . انظر إلى الآثمين وهم يوغلون أكثر فأكثر في وحل الخطيئة القذر . احياناً كانت تلم بجوشوا لحظات من الغضب العنيف ، وبعد انتهاء الصلاة يشعر بالاطمئنان ويعلو وجهه الهدوء . كان ينتظر حدوث شيء ما ، يدرك ان عليه التحلي بالصبر . ورتل تسابيحه :

أيها الرب ، انظر إلى استعداداتهم .

أيها الرب ، لماذا لاتنقض على هذا الجيل البغيض وتنهي عاداتهم الشريرة ؟ فالختان قادم .

قف إلى جانبي ، ايها الرب .

أحس كمن يخرج حاملاً عصا لمعاقبة هؤلاء الناس . ولاجبارهم على ان يركعوا امامه . ألم يحدث هذا لبني اسرائيل الذين انصرفوا عن عن الرب ، اولئك الذين لم يصغوا إلى صوته ؟

أرسلْ النار والرعد .

أرسلْ الفيضان .

ولم يحدث شيء . استمرت الاستعدادات لمراسيم الانتقال، بينما كان جوشوا واتباعه يتهيأون للاحتفال بميلاد المنقذ ، المسيح .



الفصل الثامن

يوم الأحد يوم عمل كثيف بالنسبة لجوشوا ، اذ يقود طقساً دينياً طويلاً . ومع ان كابوني كان يساعده احياناً الا أن كابوني كواعظ يتمتع بقدرة أقل على اخضاع الآخرين من جوشوا الذي يبدو كمن يعظ بايمان منبعث من أعماقه، بعد أن تنتهي الصلاة يبدأ ترتيل الاناشيد،ومن ثم العديد من اللقاءات مع أناس التلال . واحياناً يكون على جوشوا ان يجوب الريف كله من تل إلى آخر .

في أحد ما قاد جوشوا طقساً دينياً طويلاً . وحين انتهى شعر بانهاك. قبل ذلك باسبوع كان قد سافر إلى سيريانا بصحبة كابوني لمناقشة التطورات الأخيرة . كانت سيريانا بعيدة ، كما انهما قطعا المسافة مشياً على الأقدام .

بعد الموعظة أحس جوشوا بارهاق شديد لدرجة انه لم ينتظر الصلاة التقليدية ، والتراتيل خارج كنيسة ماكويو الصغيرة . هنالك رأى زوجته ميريامو وعادا معاً إلى البيت .

نيامبورا التي لم تنتظر أبداً التراتيل في الخارج كانت تتقدمهما ببضع ياردات . اما موثوني فلم تكن هناك .

عادوا إلى البيت ، ولم يجدوا موثوني . ليس ثمة مايقلق ، فموثوني

غالباً ماتذهب إلى الجوار لتقضي وقتاً في الحديث مع القرويات . ومع ان نيامبورا كانت تعرف انها لم تترك موثوني في البيت الا أنها اندهشت عندما لم تجدها .

في المساء لم ترجع موثوني ، فتسارع نبض قلب نيامبورا . قلقت ، فخرجت امام البيت لترتل قداساً . لكنها في الواقع كانت ترقب عودة أختها . دخلت إلى البيت . وغاص قلبها حين رأت وجه امها الجامد . كان جوشوا مستلقياً في فراشه . وكانت نيامبورا مضطربة في سرّها ، ومرتعبة من اللحظة التي سيسأل فيها جوشوا عن موثوني . انه لايسمح لبناته بالتأخر خارج البيت . كما انه كان صارماً جداً ذلك اليوم بسبب أغاني الانتقال إلى عالمي الرجال والنساء التي كانت تنشد في التلال . انه لايريد لبناته ان يتلوثن بها . ربما كان من حسن الحظ انه آوى إلى فراشه مبكراً على غير عادته ذلك المساء .

— أتساءل عن موثوني اين هي ؟ — قالت ميريامو بحيرة .

أنها امرأة مسالمة ، تكره اي توتر غير ضروري يحصل في البيت . كانت تنصح اطفالها على الدوام قائلة : « اطيعوا اباكم » . ولم تكن تلفظ ذلك بقسوة او مرارة ، انما هو تعبير عن إيمان ، عن اخلاص ، عن اسلوب حياة . « والدكم يقول هذا . . . — » فتتوقع التنفيذ من اولادها دون تذمر او استياء . لقد تعلمت مغزى الخضوع المسيحي ، واعتقدت أن أي مؤمن آخر له الموقف ذاته من الحياة . ميريامو لم تسأل عن معنى لحياتها ، لانها اعطتها رجلاً أحبته واهتمت به على طريقتها . ان عقيدتها وايمانها بالرب قد اقترنا بتوجسها من جوشوا . لكن ذلك هو الدين ، وتلك هي سنّة الأمور . وبرغم ذلك فان بمقدور المرء ان يكتشف من

خلال عينيها الدين الذي تعلمته وقبلت به ، انما في اعماقها ترقد إمرأة من قبيلة غيكويو .

ظلت نيامبورا صامتة ، لاتعرف ماذا تقول . وقبل ان تتمكن من تهيئة جواب مناسب نادى والدها على موثوني . كان من عادته ان ينادي عليها حين يحتاج شيئاً ما . تبادلت نيامبورا مع امها النظرات كما لو انهما اكتشفتا تلك اللحظة فقط غياب موثوني . وثبت نيامبورا نحو الخارج كأنها ذاهبة للبحث عن اختها، لكنها ارادت ان تبتعد عن غضب والدها .

لم تخبر موثوني اختها نيامبورا انها ستغادر البيت . انما تسللت من الكنيسة حسب . غير ان نيامبورا لم تنسَ مشهد ذلك الصباح ، عند النهر حتى لو كان قبل شهور .

حين عادت ودخلت البيت وجدت جوشوا واقفاً قرب ميريامو ، يحدق فيها غاضباً .

ــ أقول لك ثانية ، انك تعرفين أين إبنتك . اخرجي . اخرجي وفتشي عنها .

هبط الليل . وقفت نيامبورا جوار الباب مرتعدة . كان القِدْر الذي فوق الاحجار الثلاث يغلي . خرجت ميريامو . هذا هو معنى ان تكون أماً ، ان تحمل على كتفيها عبء آثام وذنوب الابناء . دارت حول البيت فتشت كل الاكواخ التي من المرجح ان تذهب موثوني إليها ، ولم تجدها . رجعت ، ورأت نيامبورا قد ازالت القِدْر عن النار . لم يتبادل جوشوا مع نيامبورا اية كلمة ، كما انه لم يكلف نفسه عناء السؤال منها عن أختها . ربما أعماه غضبه . وسأل ميريامو بعنف :

ــ هل وجدتها ؟

لم تجب بشيء .

ـ عودي وجديها ، لايمكن ان تنام خارج البيت .

ترددت ميريامو . اين يجب ان تذهب ؟ شعرت ان جوشوا لم يكن عاقلاً ، لكنها لاتعرف كيف تخبره . ولاتعرف كيف تثبت له ذلك . وللحظة عانت نيامبورا من عذاب الروح الممزقة بين ولائين ، إلا أنها كانت خائفة قبل كل شيء . أتكشف سر موثوني ؟ ماذا لو عادت موثوني ؟

ـ لكن ، لكن . ـ تمتمت ميريامو .

نيامبورا فقدت صبرها . بذلت أقصى جهد كي تحافظ على وعدها اللامنطوق لموثوني .

ـ ربما ذهبت الى عمتي . ـ أوحت بفزع .

كان الأفضل لو أنها استمرت على صمتها ، اذ وثب جوشوا نحوها

ـ ماذا ! عمتك ؟ لاي شيء ؟ قولي حالاً .

انكمشت نيامبورا تحت انفجاره الغاضب . ترددت . ثم تفادت لحظة البوح بالقول :

ـ اعتقد أنها ذهبت إلى عمتي في كامينو .

ـ ماذا تفعل ؟

ليس ثمة مايسعفها . نظرت إلى الباب . تهيأت للركض نحو الخارج وهي تجمع شجاعتها لتنطق بالكلمة المشؤومة : الختان .

ـ ماذا ؟

ـ لكي تختتن .

وقبل ان تتمكن من الهرب كان جوشوا واقفاً فوقها . حملق فيها وهويهزها . كان على وشك الجنون. ثمة زبد يمكن رؤيته في طرفي فمه.

ـ كيف عرفتِ ؟ من أخبرك ؟

احتمت بنفسها مرتعبة . ظنت انه سيضربها . لكنها فوجئت عندما تركها وهو يطلق تنهيدة صغيرة أحست فيها ألماً وعذاباً . واشفقت عليه .

ببطء خطا عائداً إلى الموقد ، واسترخى على مقعد . بدا أشبه بحيوان ضارٍ يعاني الهزيمة والاذلال لأول مرة . ادرك انه شاخ ، وقال بصوت معتدل ، لاحياة فيه :

ـ لمرة واحدة اسمح لك بالذهاب إلى كامينو . اذهبي إلى تلك المرأة التي تسمينها عمتك . واطلبي من موثوني ان تعود إلى البيت . فاذا وافقت سوف ننسى كل شيء ، والا اخبريها بأنها لم تعد إبنتي .

ومضى إلى سريره .

خيّم صمت على البيت بعد ان اعلن جوشوا ذلك.ميريامو لم تتكلم : فقد صدمت هي الاخرى ساكتة بفعلة موثوني . تلك الفعلة التي بدت بلا تفسير ، فعلة نشأت دونما دافع . انها تحب موثوني ، ولاتريد ان تفقدها . انها تعرف جوشوا ،فهو يعني مايقول . وسالت من عينيها دموع التمعت بوهج الجمرات الذاوية في الموقد . كانت النار تلتهب من حين لآخر فتلقي على الجدران الطينية ظلالاً مشوّهة . تحركت الظلال التي لاشكل لها وتموجت بهيئة ساخرة .

في اليوم التالي جاءت نيامبورا بانباء سيئة،اذ رفضت موثوني العودة .

جلس جوشوا ساهماً وهو يستمع إلى نيامبورا . كان قد شعر بالعار عندما تملكه الشيطان على غفلة منه في الليلة الماضية . صلى وسأل الرب ان يمنحه القوة كي لايتمكن منه الشيطان ثانية اثناء اغفاءة . لكن الانباء كانت

قاسية عليه ، قاسية على رجل يمضي في طريق الصلاح . فتذكر أيوب ، وشكر الرب .

ومنذ ذلك اليوم لم تعد موثوني موجودة في قلبه . لقد جلبت عاراً أبدياً له ولبيته الذي كان يريد ان يجعله مثالاً للبيت المسيحي .

حسناً ، فلتعد إلى مصر . أجل . فلتعد . أما هو ، جوشوا . فسيسافر ويسافر إلى القدس الجديدة دونما انقطاع .



الفصل التاسع

جاء موسم الحصاد ومضى . كان موسماً وفيراً ابتهج الناس له ، فهم لم يجربوا حصاداً كهذا منذ سنوات . تنهد الشيوخ بخوف مبهم وهم يشهدون صخب الاهتياج يخفق بين التلال باعثاً الارتعاش في الأشياء؛ ألم يروا أحداثاً كهذه من قبل في سنوات شبابهم ؟

عندئذ قدّم الرجال الاكبر سناً العديد من القرابين المحرقة إلى مورنغو إله الاجداد . مَنْ لايعرف ما يتنبأ به حصاد استثنائي مثل هذا ؟ مَنْ لايتذكر المجاعة الكبيرة التي اكتسحت التلال ناشرة اصابعها الدخانية على امتداد أرض غيكويو؟ . كان ذلك قبل المجيء الفعلي للرجل الابيض. يومها كان اغلب الشيوخ شباباً . لكنهم لم ينسوا ابداً الحصاد الوفير والثروة الكبيرة التي سبقت المجاعة .

بوسع تشيغي ان يتذكر ذلك بوضوح . لقد اعتقد هو وآخرون ان المجاعة لن تحدث ثانية . لكنها حدثت بعد وقت قصير . عندها غادر تشيغي وعروستاه ، وأناس آخرون ، التلال عبر ممر مجهول . غير أن زوجتيه لم تتمكنا من مواجهة الكارثة، فتوفيتا . كان تشيغي مايزال شاباً . وسرعان ماوجد له عروساً أخرى وعاد إلى التلال . عاد ليخبر الناس عن الرجل الابيض . لكنهم لم يستمعوا إليه ، حتى عندما جاء الرجل

الابيض إلى سيريانا لم يستمع الناس إلى كلمة تشيغي . وبعد ان تحول كابوني وجوشوا إلى الدين الجديد قطع علاقته السابقة بهما . فهذان المسيحيان لن يوفقا إلى الصلاح ، هكذا كان يقول دائماً . لقد رأى أكثر مما رأى سواه . ان اتباع جوشوا سوف يجلبون إلى الارض المزيد من الانقسامات للحد الذي ستفنى القبيلة على اثرها .

ألم يعظ هذان المسيحيان ضد كل ماهو خيّر وجميل في القبيلة ؟ كان الختان الطقس الاساسي في حياة غيكويو. مَنْ سمع مرة بفتاة لم تختن؟ من الذي سيقدم الابقار والماعز لفتاة لم تختن ؟ بالتأكيد لن يكون إبنه ، ابن تشيغي . فواياكي لن يخون القبيلة أبداً .

لم يكن لدى تشيغي مخاوف كبيرة بشأن عائلته. فبناته ختنّ وتزوّجن . وابنه واياكي الذي يدرس في سيريانا منذ عدة سنوات ، ليس من المرجح ان تفسده العبادة الجديدة. انه يعد نفسه للمجيء والدفاع عن القبيلة. لكن تشيغي كان يتعرض أحياناً لشكوك حول ابنه . أيتخلى عن القبيلة ؟ أيتخلى عن النبوءة ؟ في مثل هذه الاوقات كان تشيغي يعاني من شعور بالانهزام واليأس . وفي كل مرة يأتي فيها واياكي باجازة كان والده يرى من خلاله ان الامور تسير على نحو طيب ، مع انه لم يكن يحدثه كثيراً .

واحتفظ بذلك لنفسه . كان يدرك ان العمر يتقدم سريعاً به ، ولم يتبق له سوى أيام معدودة ، وانه غدا معتمداً اعتماداً تاماً على ابنه الشاب . لقد بدا الأبن كما لو أنه يحمل حياة ابيه وقلبه ، لذا فان الأب كان يخشى من ان تزل قدم الفتى ويتعثر .

لم ير تشيغي تناقضاً في موقفه ، تناقضاً بين الرجل المعبر عن غيكويو الحقيقي ، والرجل الذي ارسل ابنه إلى مركز البعثة التبشيرية الذي عارض

على الدوام وجودَه على ارضهم . ولكن ماذا يهمه ؟ لقد حذر الناس ، فرفضوا الاستعداد للقتال.وربما لم يعد ثمة متسع من الوقت كي يتهيأوا للقتال. ولحسن الحظ ماتزال هناك وسائل اخرى لصد الرجل الابيض. فالنبوءة ماتزال قائمة ، وفي تحققها يكمن الأمل . لقد تعلم تشيغي درساً وهاهو ينقله لأبنه. انه لشيء حسن ان تكون عارفاً بشؤون الرجل الأبيض.

وهكذا ظل تشيغي ينتظر ويأمل . راقب ابنه ، راقبه في تطوره وفي سلوكه . عاش في اعماقسه ، ذلك ان النبوءة ان لم تتحقق على يده فعلى يد ابنه . ماالفرق ؟ منقذ من التلال سيأتي . حسناً ، واياكي آخر شخص في اسرة ذلك المتنبىء العظيم الذي تكهن بقيام مسيح اسود من التلال . كان الفتى يجتهد في سيريانا ، اذ سافر إلى هناك عقب ولادته الثانية مباشرة . وفي هذا الموسم سوف ينتقل إلى عالم الرجال ، الأمر الذي سيساعده في أن يتشرب بمعرفة الرجل الابيض بسرعة أكبر ، والعودة لمساعدة القبيلة . وهذا ماكان يريده تشيغي : ان يرى واياكي رجلاً قبل ان يموت ، عندها سيتأكد من ان العمل الذي بدأ به — كلا الذي بدأ به موغو منذ وقت بعيد — لم ينته . اذ بمقدورك ان تثق بسهولة برجل مختون أكثر مما تثق بفتىً لم يختن بعد .

كانت القرابين تقدَّم برفقة الاستعدادات للختان الآتي . وفي كل مكان اجتمع المرشحون للطقس . كانوا ينتقلون من بيت إلى بيت يرقصون ويغنون اغانٍ شعائرية ، تلك التي غنيت في الازمان القديمة ، يوم كان ديمي على الارض .

كان واياكي احد المرشحين ، شاباً ، قوي البنية ، رشيقاً . ولم يكن يحب الرقصات كثيراً. والسبب الاول في ذلك هو انه لايستطيع تأديتها

كما يؤديها أترابه الذين تدرّبوا عليها سنوات عديدة . اما هو فقد ذهب إلى سيريانا بعد ولادته الثانية مباشرة ، وامضى فيها تلك السنوات ، مع أنه كان يأتي لزيارة اهله في العطلات .

غالباً ماانذهش واياكي من ابيه الذي بدا بطريقة ما وكأنه يتحدى الزمن ، مع ان صوته كان خافتاً ومرتعشاً يكشف عن شيخوخته . وكثيراً ما تذكر واياكي سبب ارساله إلى سيريانا . ولكن مع مرور السنوات غدا الحلم أقل حيوية ، وأقل حقيقية . رآه وهماً ، حلم رجل عجوز . ومع ذلك اجتهد في دراسته . وهاهو في الصف المنتهي في مدرسة سيريانا الثانوية ، حيث توفرّ له اللقاء بالفتيان من جميع ارجاء كينيا . .

غير أن غياب واياكي عن التلال جعله بعيداً عن مثل تلك الفعاليات ذات الأهمية القصوى للقبيلة . ثم ، وعلى كل حال ، لم يكن بوسعه جمع واستيعاب الافكار والمفاهيم التي منعته من الاستجابة تلقائياً لتلك الرقصات والاحتفالات .

لكنه كان يدرك ان عليه اجتياز فترة الانتقال ، كما انه لايحب ان يخيّب أمل والده . ذلك انه متأكد من ان الرجل العجوز سوف يموت في حلم المستقبل ذاك ، الذي ربما كان حقيقياً ، جزءاً رئيسياً في حياته . كما أنه لايكره فكرة الختان . بل على العكس كان يتطلع إليها . فالختان هو طموح فتوته لاختبار شجاعته اثناء الطقس. كان يعتبر ليفنغستون برغم معرفته وقداسته موغلاً في هجومه على عادة لم يفهم مغزاها الحقيقي لدى القبيلة ، ومن المرجح ألاّ يفهمها أبداً .

فوق ايقاعات الطبول والصنوج ارتفعت صيحات من التلال لتوقظ اولئك الذين ذهبوا للنوم . فهذه الليلة هي عشية الانتقال ، انها رقصة أكبر من كل الرقصات .

كان ذهن واياكي مشوشاً ومضطرباً . انه لايتذكر حالة مثل هذه منذ الرحلة الشهيرة إلى الأيكة المقدسة ، لكن ذلك أصبح حلماً ، الآن ثمة شيء حقيقي ، شيء على كل لسان . وطوال الوقت ظل يتساءل « لماذا فعَلَتْ ذلك » ؟ وأحس برغبة في ان يكلمها ، في ان يسمع الجواب من فمها ، اذ ان تمردها قد انتشر من تل إلى آخر ، كأن الانباء تنتقل عبر الريح والطبول ، فتهامسوا باسمها من موقد إلى موقد . كان قد رآها قبل يوم في بيت ذهبت للرقص فيه . ولم يصدق حين ربت على كتفه احد المرشحين للانتقال إلى عالم الرجال وهو يشير إلى فتاة شابة كانت تثب وتؤرجح ردفيها وسط مجموعة من النسوة الراقصات .

ـ تلك هي موثوني .

ـ اي موثوني ؟

ـ إبنة جوشوا ، طبعاً .

ـ إبنة جوشوا ! إبنة جوشوا !

بدا له الأمر غير قابل للتصديق . انه يعرف موثوني عندما كانت صغيرة . وبوسعه ان يتذكر اليوم الذي ارعبوها فيه هو وكنوثيا وكاماو ، يوم هاجموها من كمين عند نهر هونيا ، لحظتها أحس واياكي بالمرح الذي تحول إلى عار فيما بعد . اذ فكر ان ليس من الشجاعة إخافة الفتيات الصغيرات . وضربته أمه عندما علمت بمشاركته في ذلك . ومن حسن الحظ ان المسألة حصرت بين النسوة وتشيغي ، ولم يعلم جوشوا بها .

هاهي موثوني . . كان واياكي قد رأى جوشوا عدة مرات في ماكويو وسيريانا ، كما سمع عن صرامته في القضايا المتعلقة بالدين ، والتي هي من أهم قضايا الحياة بالنسبة له . كيف تمكنتْ من المجيء إلى

هنا ؟ ربما هربتْ ، العديد من الفتيات فعلن ذلك . على الاقل هذا ما سمعه من الفتيان الذين قدموا من مناطق ماوراء التلال حيث اقيمت البعثة التبشيرية منذ وقت طويل . تلك الليلة فتش عن كنوثيا الذي كان هو الآخر مرشحاً للانتقال إلى عالم الرجال .

– انت تفاجئني . – قال كنوثيا وضحك عليه – ألم تسمع انها هربت ؟ – وبطريقة ما هزته فكرة هروبها وتمردها ضد السلطة فعلاً .
فهو نفسه لايملك الجرأة على مخالفة قرار أبيه . على الأقل لايتمكن من رؤية نفسه وهو يفعل ذلك .

اذن ، ادرك واياكي تلك الليلة انها هربت فعلاً ، وان عمتها الساكنة في كامينو هي التي تتولى أمر العناية بها . ولكن في بعض القرى لم يصدق الناس هذه الحكاية . وقالوا ان بلحوشوا بدأ في الأمر لاسترضاء واستمالة الآلهة التي غضبت من التلال المسيئة . ألم يعلموا ان جوشوا يشرب البيرة سراً ؟ . غريب . ان احداً لم يره مرة وهو يشرب . لكنهم قالوا انهم يعرفون ذلك .

كان الرقص يجري في الهواء الطلق ، في مكان من كامينو ، أخذوا الصفّارات والقرون والصفائح المعدنية التالفة وكل شيء يمكن استخدامه ، وراحوا يعزفون مع ايقاع الاغنية والرقصة . وسيطرت على الجميع نوبة من هياج : الشيوخ والفتيان ، النسوة والاطفال ، كلهم اغرقوا انفسهم في حركة رقص ساحرة . كان الرجال يزعقون ويصرخون ويتقافزون في الهواء ، في حلقة مستديرة ، انها لحظة التفوق بالنسبة لهم ، لحظة الفرصة المناسبة . نسوة عاريات حتى الخصور بنهود ناحلة ترفرف فوق صدورهن ، يدرن عدة مرات حول النار الكبيرة ، ويؤرجحن اردافهن ، ويفتلن اجسادهن بكل انواع الإثارة . انما يحافظن على الايقاع دائماً .

كانوا احراراً . في هذه الليلة ، يتساوى الشيوخ مع الشباب . وفي هذه الليلة ايضاً بمقدورك ان تغني عن اي شيء ، ان تتحدث عن الأشياء الخفية للرجال والنساء دون شعور بأنك تنتهك العرف الاجتماعي الذي يحكم علاقات الناس ، خاصة العلاقة بين الشاب والشيخ ، بين الرجل والمرأة .

ظل واياكي مضطرباً ، يحس بشيء ما في أعماقه يمنعه من أن يغرق نفسه في جنون الرقص كالآخرين . أكان ذلك بسبب موثوني ؟ . تساءل عما سيقوله ليفنغستون اذا شاهده ، أو اذا شاهد الفوضى التي احدثتها العواطف الحبيسة التي اطلقت من قيودها . والكلمات ؟ حتى واياكي كان مرتبكاً من الكلام عن اشياء ممنوعة . ربما سبب ارباكه قد جاء من أن ذكر الاشياء الممنوعة في أي وقت غير هذا يعد عملاً محرّماً من الناحية الاجتماعية . بالطبع كان واياكي متأكداً من عدم حدوث شيء سيء رغم الكلام ، اذ كان شيئاً محرماً حقاً ان تذهب مع امرأة في مناسبة كهذه .

عند ذاك ظهرت موثوني في المشهد ، وصدح الغناء عالياً ، مستثاراً . كانت مذهلة . اين تعلمت هذا؟ تساءل واياكي وهو يرقبها من موقعه . رقصت ، وغنت ، ووصفت الحب . روت عن العلاقات بين الرجل والمرأة ، مثّلت مشاهد ، والقت كلمات عن ممارسة الحب . من المؤكد ان المبشرين في سيريانا كانوا سيحكمون عليها بالجحيم الأبدي لو شاهدوها . حدق واياكي فيها وقد أثير شيء ما في داخله . جميلة ومبتهجة بدت موثوني في الضوء الأصفر. انه نوع غريب من الابتهاج .

فجأة جذبه أحد ما إلى الحلقة . انه كنوثيا . « ارقص » صاحت

الفتيات وهن يسحبنه على امتداد الحلقة ، ويرقصن باردافهن . في البداية جعله الشيء الذي في اعماقه متحفظاً ، مانعاً اياه من المشاركة الفعلية . ورغم ان جسده قد تحرك ، وان فمه استجاب للكلمات ، الا أن روحه لم تسهم تماماً . ثم . ومن زاوية ما سمع أحداً ينطق باسمه . كانوا يغنون له ، وكان البعض يمتدحه ، والبعض الآخر يسخر منه . والتقط اسمه الطبالون والعازفون المنفردون .

عاد الصخب والاهتياج ثانية . بغتة أحس واياكي كأن يداً ناعمة . قوية تمسك بروحه وتنتزعها . انه لمن الغريب حقاً ان يشعر بعواطفه ورغباته مقيدة مؤقتاً في هذه الساعة الفريدة التي لاتُعوض . وتحرر . ونسي كل شيء . اراد ذلك الشيء فقط ، ذلك الثَمَل المجنون للنشوة والابتهاج . عندها ومض حافز بأمواج متسارعة في جسده وفي كيانه .

ناولوه بوقاً ، وراح ينفخ فيه بجنون ، قفز . أرجح وركيه . وأدّى بجسده كافة أنواع الأعاجيب . وحاول الآخرون ان يتبعوه . نأى سر موثوني – ليس من الضروري ان تعرفه . لا . عليك ان تلقي بنفسك إلى الحلم في الايقاع . وخلال ثوان قليلة وجد نفسه مع موثوني وجهاً لوجه . اذ رمي كلاهما وسط الحلقة .

بدت موثوني كما لو انها ماتزال ممسكة به ، ليس بالايدي ، ولا بأي شيء مرئي ، انما بشيء في اعماقها . ماهو؟ لم يكن بمقدوره تحديده. ربما ضحكتها . فكر ان فيها سحراً ، لأنها ترن في قلبه ، تثير اشياء فيه لم يكن قد فكر بها من قبل . ثم ماالذي يلتمع في عينيها؟ أهو ومضة حزن؟ خاف واياكي لبعض الوقت ، فنظر حوله . كانت أمه ترقبهما . استدار نحو موثوني ، فلم يجد السحر . لقد اختفى . في اللحظة التالية وجد واياكي نفسه يحوّم وحيداً ، ويشق له طريقاً وسط الحشد بصعوبة .

شعر بألم في احشائه وبأذىً في روحه . لقد تعرى وعرّض نفسه لكل العيون كي تراه . ركض خلفها تحت اطراف الاشجار المعتمة . وقفت هناك . لم يكن بينهما أية وسيلة للاتصال سوى تنفس هادىء ، كما لو كان كل منهما يحمل شيطانه الخاص المهيأ للصراع مع الآخر .

ــ انت متمردة . ــ قال دون وعي تقريباً .

ــ نعم . . انا . ــ قالت موثوني بتحدٍ .

ــ لماذا فعلتِ ذلك ياموثوني ؟ ــ سأل بمرارة .

ــ فعلت ماذا ؟

شعر بحماقته . كانت الكلمات قد تشكلت في ذهنه . وكان ينوي أن يكلمها برقة لتحكي له قصتها ، لكنه اخفق ، فتمتم مرتبكاً :

ــ أقصد . . . صد . . أنت . . هر . . . بتِ من والدك .

لم تجب على الفور . كان صمت بينهما . لم يكن بوسع أحدهما ان يرى الآخر في الظلام ، لكنهما كانـــا يحسان بوجودهما من خلال تنفسهما . ثم تكلمت بصوت واضح ، لكنه حزين ومتهدج إلى حد ما :

ــ لاأحد سيفهم. اقول اني مسيحية . ابي وأمي اعتنقا الدين الجديد، وانا لم أهرب ، انما أريد أن انتقل إلى عالم النساء وفق عادات القبيلة . أيمكن ان أكون هنا لو اني بقيت هناك ؟ اعرف ان والدي لن يوافق اذا طلبت منه المجيء ، لذلك جئت بنفسي .

بدا صوتها يتغير مع انها تكلمت بنبرة واحدة . أحس كما لو أنها نسيته ، كما لو انها كانت تروي قصتها للظلام .

ــ اريد أن أكون امرأة . ابي وامي مختونان ، اذن ، لماذا يمنعانه

عليّ ؟ لماذا ينكرانه عليّ ؟ كيف يمكنني ان أكون خارج القبيلة وقد تخلت عني الفتيات اللواتي ولدن معي في الفترة ذاتها .

بدت كلمات موثوني وكأنها فتحت عالماً امامه ، الا أنه لم يكن يراه بوضوح . كان محمولاً بصوتها المرتج ، المرتعش .

— اريد أن أكون امرأة جميلة في القبيلة ، زوجاً لسريري ، اطفالاً يلعبون حول الموقد .

كان ذلك مثل حلم يرتقي به ، ناسياً نفسه والمكان الذي يقفان فيه. تذكر حلماً آخر كهذا حدث منذ زمن بعيد . لكن هذا حلماً من نوع مختلف ، يثير فيه العنف والقوى المتناقضة .

— نعم ، اريد أن أكون امرأة جميلة ضمن عادات القبيلة .

ثم تحركت بعيداً في الحلم ، مع الحلم والظلام ، بينما بقي واقفاً في مكانه وهو يحس بالخدر والدوار . وتدريجياً أفاق . كان مضطرباً . عاد إلى الحشد متأكداً من انهم لن يمسكوه ثانية ، كان منفصلاً عنهم . تلك الليلة شعر عبر موجات واهنة من الحزن انه يفتقد شيئاً ما ، انه يتوق إلى شيء ما في اعماقه . تلك الليلة أرقَ ولم يتمكن من النوم .



الفصل العاشر

ثمة ضباب في كل مكان ، غطى كامينو وماكويو وتلالاً اخرى بلونه الرمادي المبيض الشفيف . كان الجو بارداً . بارداً يبعث ارتجافاً حاداً في الجلد . ونهر هونيا يجري كأنه يتحدى الضباب . لكن مياهه كانت باردة قارسة .

كان على واياكي ان يستحم في مياه النهر في الصباح الباكر . بدا له الماء بارداً كأنه يحز جلده مثل سكين حادة . ارتعش قليلاً وهو يجلس عارياً قرب ضفة النهر . اخترق الماء البارد جلده فخدّر العضلات . انثنى ساعداه عند المرفقين واستراحا فوق ركبتيه . تقلصت راحتاه بقوة فشكلتا قبضتين للحد الذي ظهرت فيه مفاصل اصابعه كانتفاخات صغيرة . ومرّ ابهام كل يد بين الخنصر والبنصر واتجه إلى الاعلى . انكمش عضوه الذكري ، وحين نظر إليه تساءل ان كان ذلك عضوه فعلاً . لم يكن وايكي وحيداً . فهناك المرشحون الآخرون للانتقال إلى عالم الرجال ينتظرون « الطبيب الجراح » على امتداد ضفتي النهر .

طوال حياته ظل واياكي ينتظر هذا اليوم ، هذه الفرصة ، ليفصح عن شجاعته كرجل . وكان هذا هو الطموح السري لشبابه ، حتى اذا جاء هذا اليوم شعر بالخوف ، الا انه حرص على ان لايكشفه . انما حدق في الفضاء فقط ، وقد منحه الخوفُ الشجاعةَ . أحدثت السكين ألماً حاداً

دقيقاً وهي تحز اللحم . انجز الجراح عمله ، وسال الدم قطرات طليقة على الارض فأمتصها التراب. ومنذ ذلك اليوم ارتبط واياكي مع الارض بوثاق ديني كما لو كان دمه قرباناً . لقد اثبت ابن تشيغي نفسه . كانت مثل هذه المدائح تُوَفّر للشجاع فقط .

بعد ان غادره الجرّاح جلس واياكي ساكناً . غطّوه بقطعة قماش بيضاء خفيفة . كل شيء كان على مايرام . لكن الألم كان يأتي ويهزه من الجذور . ماالذي كانت تشعر به موثوني ؟ تساءل في نفسه . وفكر ، لو أنه كان في موقعها لما جلب لنفسه مثل هذا الألم أبداً . وعلى الفور كره نفسه بسبب هذه الافكار . انه من القبيلة ، وعليه ان يتحمل عاداتها ، وان يكون في اعماق اسرار التلال .

خطرت له ايام طفولته ، وتلاشت مسرعة . ازدحم ذهنه بالعديد من الافكار ، مغامرته الأولى ، وسنوات المدرسة . فكر بليفنغستون ، بماذا سيفكر لو انه اكتشفه جالساً هناك بمواجهة النهر ، ماسكاً عضوه والدم يقطر بين اصابعه ، ويتساقط على الارض ، وتغطيه قطعة قماش كاليكو بيضاء ؟ اراد واياكي ان يضحك من الفكرة السخيفة التي من خلالها يرى ليفنغستون واقفـاً يرقب جميع الـ . . . . . آه . . . آه . . . كان الخدر يتبدد ببطء ، ويستعيد الجلد حياته . . ألم . . . لايستطيع واياكي ان يتحرك . . . . الألم ينهشه . . . ذلك كان بوابة اسرار التلال . يوم اخذه تشيغي إلى الأيْكة المقدسة ظهر ذلك بقوة لعدة لحظات . ثم فقدت التجربة نهاياتها الواضحة . الاكثر . . . غرابة ، هو كيف تحدى الشيوخُ الزمن ؟ هل فهمه واياكي ؟ شيء مايجعل تشيغي ناسياً كل شيء من حوله . ليفنغستون بطريقته الخاصة كان يشبه تشيغي . . . . . واقفاً

في الجانب الآخر . . . . . . كلا . . . اختلط الاثنان معاً . . . . الألم ثانية ينهشه كحشرة تقضم في لحمه . . . . أوه . . . موجتان قويتان . . . كان خياله شارداً . واياكي . . . . اشحذ قوتك ، واصمد . . . .

هتاف وصراخ يمتزجان مع ألم ممض! نسوة يهتفن ويغنين لشجاعتهم . لقد انتهى كل شيء ، واثبت الجيل الجديد نفسه دون اية شائبة .

كان المستشفى سقيفة صغيرة لاتبعد كثيراً عن القرية . . وكانت ارضه صلبة ، وعرة ، ذات نتوءات . اما السرير فهو غطاء رقيق من الحشائش واوراق الموز . بعد يومين انتفخ جرحه كثيراً للحد الذي جعله يتساءل مع نفسه مرتاباً عن امكانية شفائه . ربما سيفقد رجولته ! ارتجف . الفتية الآخرون كانوا مثله . قليلون كانوا يصرخون من الألم حالما تُلمَس الاجزاء المتورمة من قبل المكلفين بالعناية بهم . كان الطعام وفيراً، لكن من الذي يتذوقه ؟ انهم يجبرونهم على تناوله عبر تهديدات معذّبة ، كأن يقولون لهم ان « الشيء » الذي بين افخاذهم سوف يقطع اذا لم يأكلوا . لكن التهديد الأكثر خطورة هو : اذا لم يأكلوا فسوف تأتي امرأة إلى السقيفة ويضاجعها امامهم أحد المكلفين بالعناية . عندها يفزع الفتية مرتعبين بينما يضحك اولئك الرجال المكلفين بالعناية . اذ أن كل شخص كان يعرف مدى الألم الذي تسببه أقلُ اثارة من هذا النوع .

لكنهم يهدأون فقط حين يروي لهم المكلفون بالعناية حكايات عن الرجال واسرارهم . في البداية كانت مثل هذه القصص لاتطاق بالنسبة لواياكي ، خاصة وانه مجبر على سماعها ، اذ أنها جزء من تثقيفهم . ولكن بعد أيام قليلة ، وعندما بدأ جرحه يتماثل للشفاء اكتشف انه

بمقدوره ان يصغي إلى تلك القصص بمتعة واهتمام . فثمة الكثير الذي ينبغي ان يتعلمه .

— هل انتهى كل شيء الآن ؟

— أجل . ونحن سعداء ، فالاولاد كانوا مفخرة التلال .

مفخرة حقاً كان يمكن تلمسها في صوت تشيغي . ولهذا مايبرره . ففي كل مكان ذهب إليه لقي التهنئة والثناء على ماأظهره واياكي في التعامل مع التجربة كلها . كان الناس مندهشين من ان ثقافة الرجل الابيض لم تفسده ، فصمد أمام امتحان العادات دون تردد او احجام .

— والفتيات ؟ — سأل الشيخ من غاتانجو .

— كلهن . . . كلهن . . . .

— نعم ؟ — استفهم الشيخ الذي أحس بتردد تشيغي .

— فتاة واحدة . . . ليست على مايرام .

— من هي ؟

— موثوني .

— اوه ، إبنة جوشوا ؟ سمعنا عنها ، حالة غريبة بالنسبة لفتاة . . . .

— نعم غريبة . — وافق تشيغي .

صمتا قليلاً . كانت الشمس قد توسطت السماء لذا جلس الرجلان في ظل شجرة .

— نعم غريبة . — كرر تشيغي — كل الفتيات شفين ، بدأت جراحهن تلتئم .

— وهي ؟ . . تُركت في . . . . ؟

ـ اوه ، كلا . . . انها تقيم مع عمتها . . سمعنا ان جرحها اخذ يتضخم ويسوء .

ـ هذه لعنة الأب .

ـ ربما .

ـ اولئك المسيحيون لن يوفقوا إلى الصلاح أبداً . ـ علّق الشيخ ببطء وهو يهز رأسه .

ـ قلت هذا دائماً . انظر إلى النزاع الذي نشب في العائلة ، لو لم يكن جوشوا قد باع قلبه إلى أولئك الناس لكانت المسألة هينة . لماذا ؟ لأن مجرد خروف اسود ، نقي السواد ، تحت شجرة موغومو . قربان بسيط ينهي كل شيء نحو الأفضل .

ـ نعم، لكنهلن يوافق الآن . لقد اصبح عنيداً جداً. سمعت انهم يشجعونه اولئك البيض .

نهض الشيخ ، تناول عصاه . عطس وسحب ورقتي شجرة كان يحملهما ، ومسح انفه :

ـ حسناً ، أذهب الآن قبل غروب الشمس .

ـ امض في سلام ، هذه التلال منذ الأزمنة القديمة شهدت اشياء غريبة .

ـ اتركك بخير ، وليشملك السلام .

ومضى الشيخ . راقبه تشيغي حتى اختفى . ثم نهض واقفاً ونظر عبر الوادي . ومن خلال فتحة في الغابة كان بمقدوره ان يرى الاكواخ المختلفة التي تستلقي متناثرة فوق التل المقابل . ومن هناك رأى جانباً واحداً فقط من سقف بيت جوشوا . اطلق تشيغي حسرة صغيرة مبهمة ، ثم تمتم « شيء سيء ، سيء » . أخذ عصاه ومشى بتثاقل عائداً إلى البيت .

كان فرحاً بواياكي الذي اصبح رجلاً ، لكنه مايزال خائفاً على الريف كله .

* * *

تأملها واياكي . كانت تتنفس بصعوبة . مضى اسبوع منذ أن استأنف الآخرون حياتهم العادية . لكن موثوني ماتزال تعاني من الألم ، لذا جاء لزيارتها .

أجبر نفسه ليقول :

— كيف حالكِ الآن ؟

— بخير . — أجابت بمشقة . كان وجهها أكثر عتمة مما كان قبل الختان . لقد تحملت العملية بقوة . أعجب واياكي بشجاعتها ، تلك الشجاعة التي لم تغادرها أبداً . تحدثا قليلاً . مرةً واحدة حوّلت فيها بصرها عن واياكي وقالت :

— اتمنى ان تأتيني نيامبورا . — لم يكن ذلك شكوى ، كان أمنية فقط . أمنية أملت ان تتحقق .

— لماذا لم تأت ؟

— اعتقد ان والدي لن يسمح لها .

— شيء قاس . — قال واياكي . لم يكن لديه مايتحدث به .

— تمردتُ عليه ، اخترتُ طريقي . وحين دعاني للعودة إلى البيت رفضت .

ترك واياكي عينيه تستديران حول جدران الكوخ المظلمة . ثمة سخام اسود يتدلى من السقف بخيوط توشك ان تسقط . سرير موثوني كان مصنوعاً من اعواد الخيزران التي ربطت معاً لتكوّن هيكل السرير الذي

وضعت فوقه اعواد اخرى بشكل عرضي وفرش بالحشائش المختلطة بالقليل من الخيش واوراق الموز . كان السرير واطئاً مستنداً إلى الجدار قرب الباب تماماً . فكر واياكي : « أهي تدفع ثمن تمردها ؟ » جفل لهذه الفكرة . « أتكون المعاناة ثمن اختيار كل امرىء لطريقه ؟ أتكون ثمن تمرده ؟ »

— واملكِ ؟

— لن تأتي أيضاً ، لن يسمح لها . — توقفت لحظة — انا لاأريدها تأتي ، ستظل تبكي فقط وتحزن ، لذا ، أفضل أن أتحمل الألم وحدي .

حين خرج من الكوخ كان مضطرب الفكر . يجب ان يرى نيامبورا . وفي اليوم ذاته ذهب الى ماكويو ، وتجول هناك ، حوّم حول بيت جوشوا آملاً إن يقابلها . ثمة شيء مافي موثوني ملأه بالعطف والاعجاب على نحو ما . أكان هو نفسه قادراً على مثل هذا التمرد ؟ فكر ملياً ، و اكتشف إن من المناسب فقط أن يطيع الشخص أباه . ولربما كانت موثوني مخطئة بعدم طاعتها . ولم ير نيامبورا ذلك اليوم .

في الصباح التالي رآها تأخذ الماء من نهر هونيا . لم يعرفها جيداً . لكنه ذهل للشبه بينها وبين أختها . حتى عيناها لهما ذات النظرة القلقة الصافية التي بعيني موثوني . لم يتحدث معها كثيراً ، انما اخبرها بحالة موثوني بعد التحية مباشرة . فوجئت نيامبورا ، وبكت بمرارة . كان ذلك مربكاً لواياكي ، فانصرف على عجل بعد ان حذرها الا تخبر موثوني بأنه هو الذي اعلمها . ولم تنتظر نيامبورا ، انما تركت قِدْر الماء وذهبت لترى موثوني . تكررت زياراتها بعد الزيارة الأولى . كانت تتفادى يقظة والدها . وتذهب إلى اختها . وتجلس معها اطول فترة ممكنة ، وتحدثها عن

اشياء عامة كثيرة . احياناً كانت دموعها تتدفق من عينيها على نحو مفاجىء ولم يكن بمقدورها حبسها .

ـــ لماذا فعلت ذلك ؟ لماذا فعلت ، . . . ؟ ـــ كانت تسألها وكان حبها يمتزج بالألم . اما موثوني فكانت تحاول ان تبتسم وتقول :

ـــ اردت ان أكون امرأة . . يوماً ما ستعرفين يانيامبورا .

ـــ لاأريد أن أعرف . لاأريد ان . . .

ـــ انت أيضاً سيكون عليك ان تختاري طريقك يوماً ما .

ـــ آه ، موثوني ، لماذا فعلت . . ؟

ولم تكمل .

ومع مرور الايام تدهورت صحة موثوني ، وغدا واياكي الذي كان زائراً دائماً قلقاً ومضطرباً . كانت موثوني تنحل بسرعة ملفتة للنظر . الشيء الوحيد الذي كان يشي بالحياة هو عيناها . يجب عمل شيء ما . بات واياكي مقتنعاً بان الاعشاب التي كانت تعطيها العمة لموثوني لن تشفيها من مرضها . فتشاور مع نيامبورا واتفقا ، ثم فاتحا العمة . هكذا استجمع شجاعته وقال :

ـــ يجب ان تذهب موثوني إلى المستشفى :

ـــ إلى أين ؟ ـــ سألت العمة .

ـــ إلى مستشفى البعثة التبشيرية في سيريانا .

ولعدة أيام ظلت العمة تقاوم تلك الفكرة . توسلت نيامبورا إليها ، كارهة الضغينة في قلب العمة ، ولامتها على ذلك الاضطراب ، وبدأت العمة تتراجع عن موقفها .

ــ من سيأخذها ؟ ــ سألت واياكي أخيراً ، فكر لحظة . وقال :

ــ اذا لم يكن هناك شخص آخر ، فسآخذها انا . سأجلب من يساعدنا ، انا اعرف الطريق ، انه طريق طويل ، ولكن بمقدورنا ان نصل .

ــ تعال غداً .

كانت حالة موثوني سيئة . قبل يوم واحد غرقت في حالة هذيان محموم . كانت تضحك ، وتصرخ ، وتردد :

ــ انا امرأة الآن .

في اليوم الذي أخذوا فيه موثوني إلى المستشفى ابلغت نيامبورا امها ميريامو . كانت نيامبورا واختها قد اتفقتا على ان لا يخبرن الأم بمرض موثوني كي لايجلبن لها التعاسة . لكن حالتها وصلت درجة خطيرة لم يعد بالامكان اخفاؤها . وعندما سمعت ميريامو انفجرت باكية ، وصرخت :

ــ لماذا لم تخبريني من قبل . آه ياموثوني .



الفصل الحادي عشر

خرج واياكي من كوخ ينبثق منه الدخان . سار ببطء يسحب قدميه خلفه بتثاقل كرجل مخمور . انه كوخ نجيري ، عمة موثوني . انها أرملة توفي زوجها منذ سنوات بعد ان باغته مرض غريب . هي الآن متوسطة العمر ، فقدت الحياة بالنسبة لها الكثير من فتنتها . ولأنها لاتملك أطفالاً فقد كانت ترحب بسرور بكل من يدخل بيتها من الأطفال والفتيان . قبل فترة قصيرة أضيئت حياتها بموثوني التي لجأت إليها . لكن الحياة لم تكن كريمة معها فقد توفيت موثوني .

كان واياكي يسير على امتداد التلال دونما هدف ، ويتساءل عما ستفعله نجيري . فمما لاشك فيه انها ستُلام بسبب موت موثوني . وباستطاعته ان يرى وجهها الذي انكمش فجأة حين سمعت النبأ المحزن لقد قامت بحركة لايمكن احتمالها ، حركة بسيطة ، هكذا اخفت وجهها بيديها ووقفت جامدة دون دموع .

بكت نيامبورا وامها بصمت . بلا حسرات حتى . فقط دموع تدفقت من عيونهما وظلت تسيل دون انقطاع . كانتا تنتظران عودة واياكي والشباب العشرة الذين نقلوا موثوني إلى مستشفى سيريانا . لم يكن واياكي قادراً على النظر إلى نيامبورا وأمها .هاهو قد اخبرهما قبل لحظات ،

وما ان مضت برهة قصيرة حتّى هرع مسرعاً خارج البيت . هكذا حدث موت موثوني بعد ثلاثة ايام من مغادرتهم تل كامينو .

لم يذهب واياكي مباشرة إلى البيت . بدت الشمس كأنها غربت مبكراً . كان الريف كله ذا لون برتقالي شاحب ، باهت . كل شيء بدا هادئاً بشكل غريب . عاد القطيع دون ان يحدث الكثير من الضجيج ، وليس ثمة اطفال يلعبون ويقفزون بمرح . واينما ذهب واياكي كان يقابل وجه موثوني الصامت فيقطع عليه الطريق ، ويدير وجهه نحو اتجاه آخر . انها ماتزال هناك في كل مكان .

كان ليفنغستون في المستشفى ، وكذلك النسوة البيض . ظلت موثوني هادئة ، وفي عينيها وهج كثيف استمر يلازمها طوال الرحلة الشاقة . ساعتها لم تكن قادرة على المشي . فصنع الشباب نقّالة وحملوها فيها . لم تتكلم كثيراً ، لكنها تكلمت عن نيامبورا قليلاً .

كان واياكي يدرك محبة موثوني لأختها . وتذكر أحد الايام التي تلت زيارة نيامبورا الاولى لموثوني . دخل الكوخ ، وجد الأختين تتجادلان :

— مأزال مسيحية ، أتفهمين ؟ مسيحية في القبيلة . انظري ، أنا إمرأة وسأكبر في القبيلة وتتحسن صحتي .

حتى بعد ان دخل واياكي لم تتوقف موثوني عن الكلام . لكن كلامها كان متقطعاً ومفككاً ، وكانت جاهلة سرعة نحولها .

لم تقض موثوني ساعات كثيرة في سيريانا بعد وصولهم المستشفى . وبوسع واياكي ان يتذكر آخر كلماتها وهم يقتربون من المستشفى

« واياكي » والتفتت إليه « قل لنيامبورا اني رأيت يسوع ، واني امرأة جميلة في القبيلة . »

ثم توفيت مشدودة إلى ذلك الحلم ، إلى ذلك الهاجس الذي قادها من تل ماكويو إلى تل كامينو . من كان يعرف أي هاجس كان ؟ السؤال الوحيد الذي كان الناس يسألونه هو : « لماذا فعلتْ ذلك ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ » . حتى بالنسبة لواياكي ظل السؤال « لماذا ؟ . »

هبط الظلام . كان واياكي يتجول مثل روح ضائعة . هل كان هو الآخر مأخوذاً بذلك الحلم ؟ . كان سرّها . . . وقد ماتت من أجله . وصل إلى كوخه الخاص ، الذي بُني حديثاً . اشعل المصباح ودخل في الفراش . ولم يتمكن من النوم ، بل إستمر طوال الليل يسأل « لماذا ؟ » ولم يعرف من ذاك الذي كان يوجه إليه سؤاله .

سمع جوشوا نبأ موت ابنته ، الا أن وجهه لم يكشف عن أي تأثر عاطفي ، ماعدا ارتعاشة خفيفة في صوته ، خافتة حين يتكلم . لم يسأل ميريامو عن وقت موت موثوني ، ولاعن الذي اوصل لها خبرها . بكت ميريامو أكثر فأكثر حين رأت وجه زوجها يتسم بالهدوء . فموثوني لم تعد موجودة بالنسبة له منذ اليوم الذي باعت فيه نفسها إلى الشيطان ، أدارت رأسها وتطلعت إلى الارض الملعونة . لقد فعلت زوجة لوط الشيء نفسه فتحولت إلى حجر ، إلى صخرة من ملح . لكي تكون تحذيراً صارماً إلى الأبد. لم تكن الرحلة إلى القدس الجديدة مع الرب أمراً سهلاً . انها محفوفة بالمخاطر . لكن جوشوا كان مصمماً على الانتصار ، على المضي بخطوات سريعة ، وعيناه على الصليب . أما موثوني فقد كانت منبوذة بالنسبة له . ان أي شيء تحل عليه اللعنة هنا على الارض ، ستحل عليه اللعنة في السماء ايضاً . وليكن هذا تحذيراً إلى أولئك الذين يتمردون على آبائهم وعلى قوانين الرب .

نظر تشيغي إلى الأمر بصمت.لم يعد الصوت مسموعاً . لم يعد تشيغي يحذر . لقد قام بواجبه . ألم يتنبأ بهذه التعارضات ؟ ألم ير التنافر بين الأب وابنته ، بين الأبن والأب ، بسبب الدين الجديد ؟ كان ذلك عقاب لجوشوا . كما هو عقاب للتلال . انه تحذير للجميع من أجل التمسك بعادات التلال وبحكمة الارض القديمة وطقسها ونشيدها .

هل يسمع جوشوا؟هل يصغي كابوني إلى صوت مورنغو الغاضب؟ خاف تشيغي عليهما ، خاف على اولئك الذين اعتنقوا آلهة غريبة .هل ستسمع التلال وتنهض معاً ؟ لكن ماكويو وكامينو مايزالان متعاديين . فماكويو الآن هو وطن المسيحيين . وكامينو وطن لكل ماهو جميل في القبيلة . من الذي سينهض بمهمة توحيدهما ؟

لن يبشر موت موثوني بمستقبل ذلك . ربما يؤدي إلى المزيد من النزاعات . ولم يكن تشيغي يحب ماكان ابنه مشغولاً به . خشي عليه ، لكنه كان معجباً به ، بشخصيته، وشبابه . ولم يكن بوسعه ان يحدثه بأي شيء ، اذ اكتشف انه غير قادر فعلاً على فهمه . هل أفسدته سيريانا ؟ . مرة أخرى أحس تشيغي بصرير عظامه ؛ تلمس شعره الأشيب ؛ وتحسر ، ثم راقب متأملاً النهار الآفل ، وهو جالس على مقعد بثلاث قوائم أمام كوخه . تساءل عن الحكمة في ارسال ابنه إلى مركز البعثة التبشيرية . هل سيُعاقَب تشيغي نفسُه كما عوقب جوشوا ؟ ماذا عن النبوءة ؟ فكر في الذهاب والبحث عن رجل من جيله ليتحدث إليه ؛

نهض واقفاً . ريح المساء الباردة جعلته يرتجف قليلاً . كان كهلاً ؛ كهلاً جداً . تنهد ثانية . لكنها لم تكن بسبب الشيخوخة او بسبب ادراكه لزمانه الفاني ، بل هي تنهيدة الكثيرين الذين تحدثوا تلك الليلة والاسابيع

التي تلتها عن موت موثوني . والحقيقة هي انه ما من أحد يعرف بالضبط ماالذي سيجلبه ذلك الموت .

بعيداً ، في سيريانا ، ثمة تنهيدة ذات معنى مغاير . اذ أثبت موت موثوني وحشية عادات قبيلة غيكويو . كان ليفنغستون ، رئيس البعثة التبشيرية قد اعلن أكثر من مرة عن ممانعته اختراق التلال. بل كان يميل دائماً إلى فكرة تدريب عدد من الفتيان الذين سيكون من الممكن ارسالهم إلى هناك لنشر الكتاب المقدس . انه الآن رجل عجوز ، أصلع الرأس ، بلحية مزدوجة . لديه خوذة كبيرة صنعت من نسيج النبات . كان مولعاً بها ، لذا فهو نادراً مايخلعها من رأسه . لكنه حين يخلعها فان رأسه يكشف عن تناقض كبير بينه وبين الوجـــه والأيدي والأقدام النمشـــة . اينما ذهب ترتجف ساقاه قليلاً ، بينما يتسم صوته المرهق وعادته في الخطابة بميل نحو لفظ الحرف « R » حتى عندما يكون بين رجال ونساء آخرين من البعثة لايلفظونه . كانت معرفته بلغة قبيلة غيكويو جيدة نوعاً ما ، فخمسة وعشرون عاماً من الإقامة في مركز البعثة ليست بالفترة القصيرة .

عندما جاء إلى مركز البعثة كان ممتلئاً بالحيوية . ومن المؤكد انه كان ممتلئاً بالتوقعات العظيمـــة ايضاً . كان دائماً يتطلع إلى اليوم الذي سيقطف فيه ثمار جهوده . ولكنه مع مضي السنوات اكتشف انه لم يحرز تقدماً كبيراً كما كان يتوقع . فكان ذلك خيبة أمل بالنسبة لرجل ترك بلاده وجاء إلى ريف متوحش ، متحمساً بحلم البطولة ، وبرؤية العديد من الناس الجدد الذين يظفر بهم المسيح من خلال جهوده . غير ان دعوته وبعثته لم تلق الاستجابة التي أملَ بها . والحق ان المدرسة والمستشفى قد توسعتا كثيراً ، لكن الناس بدوا مهتمين بالتعليم فقط . أما صلاة الخلاص فكانوا يؤدونها بشفاههم ، لابقلوبهم .

كانوا متمترسين خلف عاداتهم الظلامية . فحين يمرض الاطفال يعتقدون انهم مسحورون . وحين يموت رجل يتركونه بدون دفن . ثم هذا العمل الوحشي : الختان .

كان ليفنغستون واحداً من المبشرين الذين يعتبرون أنفسهم متنورين . أولئك الذين صمموا على تعلم عادات ابناء البلاد ، وألايكرروا خطأ الجيل السابق من المبشرين الذين سببوا حروباً قبائلية ، ونزاعات أهلية ، لأنهم لم يقدّروا أهمية العادات القبائلية .

بهذه الروح حضر ليفنغستون بعض الرقصات عشية الختان . لكنه شعر بالرعب . فالاغاني التي سمعها ، والافعال التي شاهدها أقنعتــــه بما لايقبل الشك بان هؤلاء الناس هم فاسقون بكل معنى الكلمة . أحس بقرف شامل، ولم يعد يحضر مثل تلك الاحتفالات . كان يمكن لعادة الختان ان تقتلع من جذورها ، اذا كان هناك أي أمل بالخلاص لاولئك الناس . كان ليفنغستون رجلاً معتدلاً ، ومؤيداً للاسلوب التدريجي في استئصال العادة . فعلى الرغم من الحاح زملائه المتحمسين ، رفض إتّباع اجراءات طائشة ، متهورة . حدث هذا خلال سنواته الأولى . لكنه حين اكتشف ان سياسته لم تحقق النتائج المرجوة أخذ يعظ الناس بقوة ضد العادة . وحتّى ذلك الحين لم تكن الحرب الشاملة قد بدأت . هل سيرضخ ليفنغستون إلى ضغط زملائه أخيراً ؟ . لقد أصبح عجوزاً تماماً ، وقد إنضم إليه في سيريانا دم جديد .

جاء موت موثوني بعد الختان، بعد ذلك الجدع المشوّه في جسدها . سوف يتهمه الناس . وشعر بأن القدر قد خدعه،وأن الظروف كانت تسخر من عمره الطويل . لكنه سيريهم ان روح الرب ماتزال تشرق

في داخله ، فالشيخوخة ليست ذات شأن . انه المسيح الذي سيقاتل ليفنغستون من خلاله أميرَ الظلام . أجل ، المسيح يعمل في داخله ، ويجعله شاباً في لحظة الفعل . يجب أن تتم مقاتلة الختان بكل أنواع الوسائل المتوفرة بين ايديهم . وبمقدوره ان يعتمد على جوشوا وكابوني في مساعدته .

ذلك اليوم دخلت امرأة عليه . كان في مكتبه ، جفل حين رآها . انها مارثا ، واحدة من أعنف منتقدي سياسته .

ـ عفواً ايها المبجل .

ـ نعم ؟

ـ هل تعرف الفتاة التي توفيت ؟

ـ موثوني ؟ جلبها واياكي وعددٌ من فتيان البعثة .

ـ اذن ، فأنت لاتعرف والدها .

ـ نعم ، لااعرف .

ـ انها إبنة ، إبنة . . . .

ـ نعم ؟

ـ إبنة جوشوا .

قالت مبتهجةً بالنصر ، وفي عينيها وميض فرح . حلت برهة وجيزة من الصمت الشامل ، بعدها ، أطلق آهة صغيرة ، « أوه » ، آهة صغيرة ، مثيرة للشفقة إلى حد ما . انها الحرب ، هاهي تبدأ الآن .



الفصل الثاني عشر

خلال أسابيع قليلة أصبح اسم موثوني اسطورة ، نُسِجت حوله القصص . قال البعض انها لم تمت فعلاً بسبب جرح عملية الختان ، بل بسبب السم الذي قدّمه لها المبشرون . والحق ان واحداً من الشباب الذين نقلوها إلى المستشفى في سيريانا هو الذي رآهم يفعلون ذلك .

اجتمع رجال ماكويو الاكبر سناً . تبادلوا اشارات عامة ، ونظروا إلى بعضهم . لقد فهموا . هذا المعتقد الجديد قد أفسد التلال الأمر الذي أغضب مورنغو. إستمعوا إلى الرعد الذي يزأر في السماء. إنظروا إلى البرق الذي يخطف الابصار ، وامضاً فوق الارض ! ذكروا تشيغي وكلماته . كان يجب ان يصغوا إليه . كان يجب ألا يضع الرجل الأبيض قدماً في سيريانا أبداً . غير إن مخفراً حكومياً كان يبنى على السلسلة المجاورة لتل ماكويو ، وقد غدا واضحاً إن على الناس دفع الضرائب.

ماذا بوسعهم ان يفعلوا ؟ لقد تأخروا كثيراً بالقيام بعمل ما . كان تشيغي على وشك الموت . مرض غريب في المعدة أقعده في البيت . اضف إلى ذلك قوة اولئك المسيحيين الذين يقودهم جوشوا وكابوني ، والذين عززوا تل ماكويو باعتباره قلعتهم . ومع ذلك فان بعض الرجال الاكبر سناً لم يهتموا للأمر . لكن موت موثوني كشف بوضوح ان الشر وحده سيأتي من الانضمام إلى المعتقد الجديد . وابن تشيغي ، ماذا عنه ؟ نخشي

الأكبر سناً . كان ينبغي على تشيغي الا يسمح له أبداً بالذهاب إلى سيريانا .

واجتمع اتباع جوشوا . تحدثوا وسبَّحوا . واعتقدوا ان موثوني روح شريرة ارسلت إليهم لتختبر اخلاصهم ، وبات واضحاً للجميع ان الشر وحده سيأتي من التمسك بالعادات القبائلية .

كان جوشوا ، قائدهم وملهمهم ، يلقي عظاته بنشاط ، وقداسة غريبة تتراقص في عينيه . قبل ذلك ذهب إلى سيريانا ، وناقش الأمر مع ليفنغستون الذي أدرك مايقوله جوشوا . يومها عاد جوشوا بمهمة جديدة : الختان شر بكل مافي الكلمة من معنى . ومنذ ذلك الحين يجب ألا يقبل أي شخص في عضوية الكنيسة اذا اكتشف أن له علاقة بأي شكل كان مع شعائر الختان . لقد منحت حماسة جوشوا قوةً جديدةً ، وأملاً جديداً لأتباعه الذين كان معهم الرجال البيض في سيريانا ومناطق أخرى . ومعهم جميعهم كان الرب .

لم يرجع واياكي إلى سيريانا . كان والده مريضاً جداً ، لذا لم يستطع ان يتركه وحيداً . راقب والده خائفاً . انه لايتمكن من أن يتخيل البيت بدونه . ماذا يفعل ؟ ماذا تفعل التلال ؟ عاد بذهنه إلى الوراء وشاهد والده الذي كان يراه دائماً ، حتى انه لم يتعرف إليه ببساطة . ماالذي يجعل تشيغي بعيداً حتى عندما يقف قريباً منك ؟ أهو قلقه على القبيلة ؟ أهو حلم الرجل العجوز الذي تعلق به يوماً بعد يوم ، وفي كل ساعة من حياته ؟ تذكر واياكي ذلك اليوم في طفولته ، ذلك اليوم الحميمي الذي فهم فيه والده . بدا له الأمر كما لو أن تشيغي القى بروحه عارية لعدة لحظات امام الفتى . الفعل الذي لم يكرره تشيغي ثانية .

غريب ان يستعيد واياكي ذلك الحادث بهذه القوة ، خاصة وانه بهت في ذهنه ، وفقد نهاياته الواضحة ، بعد ان مضى عليه زمن طويل .

هل ان المبشرين عازمون على توسيع الشقاق بين ماكويو وكامينو ؟ رأى واياكي التلّين يحدقان ببعضهما بتهديد واضح . هل سيتقاتلان اثر تشجيع المبشرين لأتباعهم ؟

ماأدهش واياكي هو الشعور بالحقد الذي لم يسبق له مثيل ، والذي برز بوفاة موثوني . لكن الحادث بحد ذاته يبدو صغيراً . ربما كان واحداً من حوادث التاريخ التي هي صغيرة في ظاهرها ، وكبيرة في نتائجها . فثمة فتيات كثيرات كن قد رشحن للانتقال إلى عالم النساء من قبل . لكن وفاة واحدة او اثنتين منهن لم يثر ابداً مثل هذا الحقد بين الناس .

رأى واياكي اقتراب أكبر انفصال في حياة البلاد ، اذ أدرك ان الصرامة التي أخذ يتبناها ليفنغستون سوف تباعد حتى بين اولئك الذين تمسكوا بالعادات الجديدة . فثمة اناس لايهجرون عاداتهم كلية حتى بين الذين يؤيدون جوشوا .

ولم ينتظر واياكي الانفصال طويلاً . لكنه جاء من جهة لم يتوقعها . جاء من كابوني . وهو اقرب اصدقاء جوشوا ، فتبعه كثيرون ، بينما ظل جوشوا موالياً لسيريانا ، فجمع البقية الباقية من الناس الذين راحوا يعززون بعضهم بعضاً كالمريدين في الأزمنة القديمة . أحس واياكي بثقل يربض فوق قلبه بسبب هذا الاضطراب . اين مكانه في كل هذا ؟ شعر انه غريب ، غريب عن أرضه .

يوماً ما كان واياكي عائداً إلى بيته من تل بعيد . كان قد ذهب إلى هناك ليلتقي بصديق ، وليقطف اوراقاً من شجرة وُصِفتْ كدواء

لوالده المريض . ذلك ان تشيغي لم يكن يصغي لفكرة تناول أدوية الرجل الأبيض منذ وفاة موثوني .

هناك سمع واياكي خبراً مفاده ان اطفال الذين يَتَحَدَّوْن قوانين الكنيسة ، ويستمرون في عاداتهم القبائلية سوف يطردون من سيريانا ، ولن يسمح لأي طفل من اطفال الوثنيين بدخول المدرسة مالم يكن لاجئاً. وحتى في هذه الحالة ينبغي على الطفل ان يتخلى عن الختان . ادرك واياكي ان ذلك سيكون النهاية بالنسبة له . كان يأمل اكمال سنته الأخيرة ، و كان يحب التعليم .

عاد إلى البيت بوجه مكتئب . اراد أن يتجه مباشرة إلى كوخه ، ويخلو إلى نفسه. لكنه حين اقترب من البيت وجد أمه واقفة في الخارج. كانت تبكي . فوجىء بها . وعلى الفور نسي افكاره ، اذ أنه لم يشاهد دموع أمه من قبل .

ـــ مااللذي حدث ياأمي ؟

وانفجرت باكية من جديد . « مااللذي حدث؟ » سأل ثانية بخوف. عندها رأى مجموعة من الرجال الأكبر سناً يخرجون من كوخ والده . رمى أوراق الشجرة من يده متألماً ، غاضباً . وركض نحو الكوخ بأمل أن يرى والده حياً ، ولو لثانية واحدة .



الفصل الثالث عشر

قطرة ، قطرة ، على امتداد حافة السقف الذي من الحديد المموّج . قطرة ، قطرة ، يتساقط المطر في خيط من حبات كبيرة متتالية على الارض كما لو كانت تتنافس في سباق .

شكّل المطر حفراً صغيرة وبركاً وفجوات . قطرة ! واحدة كبيرة شفافة ، رقيقة تهبط إلى الاسفل في بركة صغيرة ، ساعدتها مثيلاتها على خلقها بصبر . تضرب صفحة الماء في الحفرة فيقفز الماء الطيني إلى الاعلى مكوّناً عموداً مخروطياً سرعان ماينطفىء . وعلى امتداد الارض كانت المخاريط تتقافز إلى الاعلى مثل جنود يراوحون الخطى . في الخارج ، العشب الذي ظل لفترة طويلة ذابلاً وسقيماً بدأ الآن يستيقظ منتعشاً .

وتساقط المطر بعنف . خيوط دقيقة في كل مكان تشكل حاجزاً ضبابياً ، فلا يستطيع المرء ان يرى أبعد من ياردات قليلة . أخذت المخاريط تتقافز متسارعة ، ثم توقف المطر وحل محله دفق مائي يأتي من السقف كما لو انه يواصل السباق .

وقف واياكي في باب مكتبه واضعاً قدمه اليسرى على الدعامة الخفيضة ، وسانداً جسده بيديه اللتين تمسكتا بجانبي اطار الباب . تأمل قطرات المطر الماثلة . كانت البناية ذات الجدران الطينية ، التي تشبه

الثكنة، المسقفةبالاعمدة والقش ،والتي يمكن رؤيتها بصعوبة عبر المطر الضبابي ، جاثمة كما هي منذ حوالي ثلاث سنوات . انها المدرسة المؤلفة من مكتب واياكي اضافة إلى البناية التي قسمت إلى أربعة صفوف . أدرك واياكي ماكان يحدث داخل جدران البناية . فالسقف المعد من الحشائش لايصمد أمام المطر . ومن المؤكد ان بركاً صغيرة من الماء قد تكونت فوق أرضية الصفوف . ذلك هو ثمن التعطش للمعرفة الذي ينبغي على الاطفال ان يدفعوه .

ربما هم محتشدون الآن مجاميع في احدى الزوايا الجافة ، يرتجفون من البرد . المحظوظ فقط هو الذي يملك شيئاً يغطي به رأسه .

داخل المكتب كان زميلاه المعلمان ، كاماو وكنوثيا يتناقشان حول موضوع ما . كانا يجلسان كعادتهما إلى طاولة . انهما يأتيان إلى هنا لأن المكتب هو غرفة للمعلمين أيضاً . عندما يكون لديهم اجتماع ، او حديث أو نقاش ، او شجار احياناً يأتون إلى المكتب ، ويتحدثون في السياسة والدين والنساء وشؤون أخرى . على الارضية ، في الزاويتين ، قرب الباب ، كومتان من اشياء مختلفة . فالمكتب يستخدم كمخزن ايضاً ، حيث يمكن ان تحفظ معدات المدرسة . كما ان من المتعذر تقريباً محاولة حفظ الاشياء في نظام مناسب لأية فترة طويلة .

تواصل المطر . كان واياكي يراقبه . وبذهن مشوش يفكر في المدرسة وريف الأسود النائمة . فهو لم يعد معزولاً ، اذ أصابه ماأصاب أي جزء آخر من غيكويو ، منذ أن تحولت ملكية الارض في التلال والسلاسل المحيطة بسيريانا إلى المستوطنين البيض . ان ذراع الرجل الابيض طويلة كما اخبره والده تشيغي ذات مرة . هاهو احتلال الاراضي يجري الآن . وغدا بعض الناس يعملون في الاراضي التي تحولت ملكيتها كي يحصلوا على النقود ، ويدفعوا الضرائب .

كان كنوثيا يقول :

– شيء سيء، شيء سيء . ارى أن على الرجل الابيض ان يغادر . أن يعود من حيث أتى ، ويتركنا نحرث ارضنا بسلام .

كان الآخرون مستغرقين في المطر المتساقط : وبدا كنوثيا كما لو انه يعبر عن الأفكار التي خطرت في ذهن واياكي .

كنوثيا هادىء بطبيعته ، لكنه حين يناقش أحداً تتغير عيناه ذات الحركة البطيئة ، وتتوثبان بالانفعال . ثم يتكلم ملوحاً بذراعيه في الهواء.

كنوثيا رجل قصير ، بكتفين عريضين متينين ، وذقن صغير حاد . انه يمتلك اسلوباً يتغلب فيه على خصمه بعنف صوته أكثر مما بالمنطق البارد. كانت النقاشات السياسية التي تجري في المكتب انما هي مؤشر لما كان يحدث في جميع ارجاء التلال . حقاً ، ثمة حاجة متزايدة للقيام بعمل ما : وقد تعزز هذا الشعور بسبب تحويل ملكية الارض القريبة من سيريانا . الأمر الذي أجبر أناساً كثيرين على الارتحال من اراضيهم التي سكنوها منذ عصور . في حين كان على آخرين ان يقيموا فوق الارض ذاتها ، وان يعملوا لصالح اسيادهم الجدد .

الانفصال عن سيريانا جعل الموقف اسوأ ، واغضب الناس كثيراً . شعروا بألم الظلم . وبدا للبعض ان التلال نامت طويلاً أكثر مما ينبغي . فأخذوا يستعيدون تحذيرات تشيغي . وتمنوا لو انهم استجابوا لندائه في الايام الاولى . عندها إنبثقت منظمات صغيرة في التلال ، ووجد واياكي نفسه مشغولاً على الدوام. وراح عناصرها يأتون لرؤيته باعتباره قائداً، وبشكل غريزي يتجهون إليه لأجل أشياء صغيرة . غير انه كان قلقاً دائماً بسبب الهوّة الآخذة في الاتساع بين اتباع جوشوا والعناصر المنفصلة .

في قلب واياكي مودة خاصة لكنوثيا . لكنه لايحمل الشعور ذاته لكاماو . كاماو بن كابوني . كابوني الذي كان من اتباع جوشوا ، والآن قائد المنفصلين عن سيريانا . كاماو نحيف ، طويل ، الا أنه لم يصبح طويلاً للحد الذي توقعه الناس عندما كان صبياً . أما عيناه فقد حافظتا على تلك النظرة الصارمة ، المتوترة .

ولم يحبب واياكي الطريقة التي ينظر فيها كاماو إليه بعينيه الصغيرتين الغائرتين ، ولونهما البني المنقط بالابيض . انهما تضفيان عليه مظهراً ماكراً ذاك الذي يتبينه فيه واياكي . وكاماو لايحب واياكي أيضاً . فالشاب الذي يتولى القيادة يكون دائماً هدفاً للغيرة من قبل انداده ، من قبل الاكبر سناً منه ، من قبل الذين يعتقدون انهم بمقدورهم ان يصبحوا قادة أفضل .

كان كاماو رجلاً أنيقاً بشعره القصير جداً دائماً . ثمة شيء ما بدا غير مريح ، وغير أنساني في إناقته .

هطل المطر بقوة أكبر . والنقاش الساخن مازال مستمراً . تأمل واياكي المطر والريف ، وغدت افكاره معتمة .

— لنفرض والدك . . . .

— نحن لانتحدث عن والدي . — قاطع كاماو .

أدار واياكي رأسه بهدوء وتبين تجهماً في وجه كنوثيا . كان المناخ في الغرفة متوتراً . وفجأة ضحك كنوثيا ، وشاركه كاماو . فيما مضى كانا قد تشاجرا حول قضية الآباء أيضاً .

— يجب ان تكون رحب الصدر ياكاماو .

قال واياكي الذي شاركهما الضحك . واستأنف كنوثيا كلامه مباشرة :

– طبعاً أقصد والدك كمثال . حسناً لنأخذ والدي مثالاً اذا تحب . انه رب الأسرة ، ولنفرض ان رجلاً آخر كأن يكون كارانجا أو نجوغونا جاء إلينا ، وقمنا بواجب الضيافة . وافرض انه بعد فترة أزاح والدي ، واعتبر نفسه رب الأسرة ، وله حق السيطرة على ملكيتنا . هل تعتقد ان له حقاً اخلاقياً في ذلك ؟ هل تعتقد ياواياكي ؟ وهل تعتقد اني ملزم بأية اعتبارات في طاعته ؟ حين تصبح الظروف شاقة ، لاتحتمل ، علي أن اتمرد ، ليس فقط ضده ، بل ضد كل ماهو جائر وقاس وغير عادل . خذ بعثة سيريانا مثلاً ، جاء رجال الرب إلى أرضنا بسلام . اعطيناهم المكان . الآن انظر ماذا حدث . لقد طلبوا من اخوتهم المجيء والاستيلاء على الارض كلها . بلدنا يغزى ياكاماو ، وهذا المخفر الحكومي خلف ماكويو هو وباء بيننا ، ثم ضريبة الكوخ . . . . .

هنا استبد به الانهاك . نظر حوله بتحد او بحزن ، عندها اخذ يتنفس بصعوبة . وانفعل ثانية . لوّح بيديه في الهواء ، ثم ضرب الطاولة ، ترك عينيه تدوران في المكان كما لو أنه يتحدث في اجتماع سياسي كبير .

لم يسبق لواياكي ان رأى كنوثيا هكذا . ثم لماذا يصبح الذين درسوا في سيريانا متحمسين ضدها على هذا النحو ؟ ان ذلك يشبه ماقام به والده الذي ارسله إلى البعثة التبشيرية التي كان يعارضها طوال حياته . ربما كانت الحياة تناقضاً . أحس واياكي بشيء يخفق في داخله وهو يستمع إلى كنوثيا . ربما كان كنوثيا يتكلم عن التلال النائمة ، من أجل ريف غيكويو كلــه . ثم أخمد هــذا الاحساس ، وفكر في الدافع الجديد

للتعليم . فربما كان هو الجواب على تطلعات الناس وآمالهم . وللحظة غرق في تأمله حول التعليم والخطط التي في ذهنه . . . . .

ــ تعال ياواياكي ، حدثنا عن مجلس القرية الجديد . ــ قال كاماو

فقد واياكي تخيله . انما استمر يرقب المطر . المطر شيء مبارك . والمجاعة التي خشي من مجيئها الناس فيما لو استمر الجفاف أخذت تبتعد. تلك اللحظة سالت من الفجوات جداول دقيقة ، ضيقة ، واخترقت الاعشاب . كانت تتداخل مع بعضها وتتدفق لتلتحم مع الجدول الرئيسي كنهر صغير ، كنهر هونيا ، او كفيضان . لكن هذا النهر سوف يجف. أما نهر هونيا فسيظل يجري إلى الأبد .

هبط النهر الصغير إلى الاسفل وهو يطلق تمتمات واهنة ، يتحدث إلى نفسه او إلى الارض . انه « طوفان نوح » فكر واياكي .

قال كنوثيا :

ــ نعم ، اعتقد ان مجلساً كهذا يحافظ على نقاء عاداتنا وطراز حياتنا يجب ان يتشكل الآن .

كان واياكي قد سمع عن هذا المجلس ، مدركاً ان كابوني وراء فكرة انشائه . خشي واياكي من انهم سوف يعطونه موقعاً في قيادته ، ذلك المجلس الذي سيضم جميع التلال . ولم يتحمس له ، بل اراد أن يركز على التعليم . ربما كان لفكرة ليفنغستون القائلة بأن التعليم ذو قيمة ، وان طلابه لن يشغلوا انفسهم بما تفعله الحكومة او ماتفعله الاحزاب ، مكاناً في قلبه .

استمر المطر بالهطول . كان ينهمر بقوة فوق الاعشاب المسمّرة من

حرارة الشمس . ماذا كان ذلك ؟ والمطر يتواصل ، ويسيل جداول دقيقة تجتمع وتنضم إلى بعضها .

رأى واياكي ماكانت تفعله الجداول :

تجرف التربة

تعرّي وتقضم اليابسة

وتسرق الارض

تلك هي الصرخة ، الصرخة فوق كل تل . وربما لن تنام الاسود أكثر مما نامت ، لأن الجميع كانوا يصرخون ، يصرخون من أجل الأرض . فالأرض قيّمة للقبيلة . وهذا مايفسرمخاوف كنوثيا وأمثاله من انتهاكات الرجل الابيض . خافوا مما حدث في كيامبو ، ونايبري ، وموورانغا . فللمستوطنين الجدد ولمركز سيريانا الوجه ذاته . كان واياكي يفكر ، هل كان المتنبىء موغووا كيبيرو مصيباً ؟ . يوماً ما سيغادر الرجل الابيض ، فتذكر والده ، وتلك النبوءة .

غضب فجأة . ليس من الرجل الابيض ، او من كنوثيا . انما من المطر . فالمطر يجرف التربة ، ليس في هذا المكان فقط. انما في كل مكان. وذلك مايفسر سبب جدب الارض في بعض الاجزاء . ولبعض الوقت أحس كأنه يقاتل المطر . لقد تحولت القطرات المتسابقة إلى اوحال وطين . همد واياكي ، وبدا كما لو انه يضحك في اعماقه . حتى هنا ، في هذا الحدث الطبيعي كان بمقدوره ان يكتشف تناقضاً ما . فالمطر يلمس التربة ، واللمسة قد تكون بركة او لعنة . واياكي رجل بمزاج عاطفي حاد.

توقف المطر . بينما استمرت الجداول الصغيرة تجرف التربة . الآن ، حان الوقت كي يضع حداً لذلك . لقد ضاعت فترة مابعد الظهر كلها .

لاسبيل إلى الخارج . هذا مايحصل دائماً . سوف يكلم الرجال الاكبر سناً ويرى مايمكن القيام به من اجل اصلاح السقوف .

ــ اعتقد ان من الافضل ان ندع الاطفال يغادرون . ــ قال واياكي لزميليه ــ كاماو هل ستخبرهم ان يجلبوا معهم المساحي والرفوش غداً . يجب ان نفكر بملط البناية ، فثمة الكثير من مياه المطر .

من المؤكد ان البناية تحتاج إلى ذلك، فمن المكان الذي يقف فيه باستطاعته ان يرى فجوات كبيرة على امتداد جدرانها المثلمة . وقرع الجرس : انه قطعة حديد معلقة في الخارج بسلك . بعد دقائق قليلة كان يمكن سماع صياح وصراخ الأطفال في كل مكان . ها قد انتهت الدراسة لذلك اليوم .



الفصل الرابع عشر

ماريوشوني ، هو الأسم الذي اطلق على مدرسة واياكي . كانت مشهورة في الريف ، اذ اصبح لها تاريخ . انها مدرسة الناس الاولى الخاصة بهم ، والتي بنيت بعد ان حصل الانفصال عن سيريانا . كانت فكرة انشائها تعود إلى واياكي الذي لم يدرك حتى الآن كيف أثمرت بهذه السرعـــة . رأى ذلك كما لو كان شيئاً خارجاً عنـــه ، شيئاً من صنع القدر . كان الحدث يتبع الحدث في تتال سريع ، الأمر الذي يسّرع بدوره من ايقاع الحياة في التلال . كان هناك الحصاد ، ثم موت موثوني الذي عقّد قوانين مركز سيريانا إلى الحـــد الذي لايقبـــل فيه الطلاب الذين اعتبروهم اطفال ظلام ، والذين لم يهجر آباؤهم فكرة الختان . واياكي مايزال يتذكر الهياج والتوتر اللذين سادا على امتداد السلاسل بسبب تلك الاحداث .

موت أبيه شلّه تقريباً ، ولم يعرف سبب ذلك . ومع ان موته كان متوقعاً الا أنه كان صدمة له. لقد بدا موته جائراً في ذلك الوقت بالتحديد. كان يجب أن يعيش فترة أطول . وهكذا استمر واياكي مخدّراً لايعرف كيف يفكر او ماذا يفعل . والمفاجأة الاكبر هي انه غدا شاباً ، معتمداً على نفسه . في هذا المزاج واتته فكرة بناء المدارس . لكن ماذا كان

بمقدوره ان يفعل ، هو الشاب ؟ كما ان ماحدث يعني انه لن يعود إلى سيريانا أبداً . لقد جاء الوقت الذي يعمل ويخدم فيه أناس التلال.

حين بدأ واياكي في تنفيذ فكرة التعليم اعتماداً على نفسه ، رأى ذلك مثل رسالة عليه ان ينجزها . كانت الفكرة حلماً إتبعها بالأمل والحب . سافر من تل إلى آخر ، وتجوّل في جميع أرجاء الأسود النائمة . وجد أناساً راغبين بتعليم ابنائهم . أجل ، لقد بدأت بقظة التلال . فعرفته الاشجار ، والطيور ، والممرات التي وطأها ، عرفته رجلاً قُدِّر له ان يخدم بلاده .

ليس هذا المكان هو الوحيد الذي حدث فيه ذلك ، اذ أن الروح الجديدة اندفعت تمور تلقائياً في كل ريف غيكويو ، من كيرنياغا إلى كابيتي .

ونمت المدارس كالفطر . المدرسة لاتعدو ان تكون سوى سقيفة تبنى على عجل من الاعشاب والحشائش . وهكذا نهضت رموز تعبر عن عطش الناس إلى السحر الغامض للرجل الأبيض وقوته الخفية . ثمة القليل الذي أراد أن يتبع طراز حياة الرجل الابيض ، انما الكثير الذي اراد ذلك الشيء ، ذلك السحر . كان البناء المشترك للمدارس يعزى إلى عادة القبيلة في التعاون . انه تصميم على ان يمتلكوا شيئاً ما ينجز بجهودهم مدفوعين بحماس تصورهم الخاص .

ولكن هناك ماهو أكثر من ذلك . انه الختان ، طقس القبيلة المهم ، الذي ظل يجمع الناس معاً ، ويقربهم من القبيلة . إنه جوهر البنية الاجتماعية ، والشيء الذي يعطي معنىً لحياة الإنسان . أما فكرة انهاء العادة ، الاساس الروحي لتوحد القبيلة والتحامها فلم يعد لها وجود .

كانت الصرخة عالية : غيكويو كارنجا إحفظ القبيلة نقية، صافية ، انها صرخة الروح ، أمنية الروح .

و بسرعة غصت المدارس بالاطفال المتلهفين إلى التعليم ، واتسع الصف للاطفال الذين احتشدوا فيه . أما المعلمون فهم اي من الذين تمكنت المدرسة من انتزاعهم من سيريانا . كانوا يجاسون امام التلاميذ الذين كانوا ينظرون إليهم بعيونهم الصغيرة ، الآملة ، متلهفين لتناول المعرفة . وكان الآباء والامهات ينتظرون متوقعين عودة أبنائهم ، وهم ممتلئون بالمعرفة والحكمة . انهم يشعرون بالفخر ، بالفخر الكبير ، حين يعود صبي في المساء ووجهه مغسول بالدموع .

— ضربك ؟ لاتبك ، فأنت رجل ، وهو « معلم »

— هذا معلم ممتاز ، انه يضربهم بقسوة .

واذ يمر المعلم عبر القرية ينادونه :

— مرحباً يااستاذ .

— نعم ؟

— اضربهم بقسوة ، نريدهم ان يتعلموا .

وتمسك الاطفال بحماسة آبائهم ، ربما رأى الآباء فيهم أمل ومجد القبيلة . ولكن مع تلك التغيرات العظيمة ظل أناس قليلون محافظين على سلوكهم القديم ، لاينحرفون عنه أبداً .

كان واياكي مديراً لمدرسة ماريوشوني . يذهب إليها في الصباح ، ويعود منها في المساء . هكذا كان دائماً تقريباً . كان يحبها ، وكانت المسافة التي يقطعها مشياً تمنحه فرصة للتفكير بمشاكل التعليم . أراد أن

يعطي الكثير له ، وان يخدم مخلصاً . غير ان قوة الكراهية ، والهوّة الآخذة في الاتساع اللتان تولدتا إثر وفاة موثوني كانتا كافيتين لبعث القلق في قلب أي شخص .

فهناك المسيحيون الذين يقودهم جوشوا ، رجال جوشوا كما يسمون أحياناً . قاعدتهم ؟ ماكويو ، وهناك أناس القبيلة الذين كانوا دائماً ضد البعثة التبشيرية وعقيدتها ، وموقعهم أو قاعدتهم فهي كامينو كما كانت من قبل . أما التلال الأخرى فهي تتبع هذا الجزء قليلاً او كثيراً . وهكذا استمر التنافس القديم تحت هذا المظهر أو ذاك . كان الارتباك يتنامى وينتشر بظلاله تحت الهدوء الظاهري للتلال . أي موقف كان الناس يفضلونه لواياكي ؟ ألم يتلق تعليمه لدى الرجل الأبيض ؟ أليس هذا جزءاً من المعتقد الآخر ، المعتقد الجديد ؟ . كانت مجموعة تل كامينو قد قويت بالمجموعة الانفصالية التي يقودها كابوني . أما واياكي فقد شعر أنه يقف بعيداً عن كل ذلك . وأحس احياناً أنه منعزل عنهم .

حتى وسط هذه العزلة كان واياكي فخوراً . كان فخوراً بدوره الصغير الهام الذي كان يلعبه في ايقاظ تلال الأسود النائمة . وفي اعماقه أحس بغموض ان من الأفضل مصالحة جميع المتنازعين .

لكن دوره لم يقنعه . انـــه مايزال يشعر بالحاجة والتوق لشيء ما يملأه كلية ، شيء ما يستحوذ على كيانه . وبدا ذلك الشيء خارجاً عنه ، يقبع كما كان دائماً في عادات الارض .

أصبح واياكي رجلاً طويلاً ، ذا بنية قويـــة ، يندهش الناس لوسامته . غير أن هذا لم يكن الشيء الاكثر ادهاشاً لهم ، انمـــا كانت عيناه ذات النظرات الرقيقة ، المؤسية ، الآمرة ، المتوسلة . انهما عيناه اللتان تنطقان بذلك التوق ، بذلك الشوق لشيء ما يملأ كيانه كله .

أحياناً يدفعه الشوق لأن يجهد نفسه في العمل . انه قادر على العمل الجاد الحقيقي . لهذا ، ولتصميمه الشجاع أحبه الناس ، واعجبوا به . فربما تسللت إليه روح والده ذاتها .

انه شاب لدرجة أربك فيها الناس . فالشاب لايُتوقع منه قيادة او أدارة عمل ما كبير .

— ربما ثقافة الرجل الابيض . — قالوا .

— كلا ، ألا تتذكره عندما كان فتى ؟

— نعم . كان دائماً غريباً ، وممتلئاً بالشجاعة .

— انها العائلة التي تحدر منها . . ألا تذكر والده ؟

— نعم ، كان . . . . .

أصبح واياكي مفخرة التلال ، ومفخرة كامينو ، وأخذوا يسمونه نصير عادات القبيلة وحياتها .



الفصل الخامس عشر

لم يتمكن واياكي من النوم . تسللت أشعة رقيقة لضوء القمر من شقوق في جدار الكوخ ، وانتشرت فوق بقع مختلفة من الارض . ليس صحيحاً ان تحدق بقوة في الظلام المضبب الذي تضيع فيه الحافات الواضحة لكل شيء . اراد ان يتحدث إلى أحد ما . ماكان يضغط عليه هو الرغبة في أن يشاركه احد آماله ، اشواقه ، تطلعاته، خططه التعليمية ، والرغبة في الضمان والتنفيس عن الروح . مرتين حاول ان يحدث أمه ، أن يسألها ، لكنه في كل مرة كان يقف امامها ، ويسمع صوتها المرتجف ، فيجد نفسه يتكلم عن اشياء عامة . من الغريب ان يخلق ذلك الارتجاف في صوتها شكوكاً تنقض عليه .

مااللذي كان يتوق إليه ؟ مااللذي كان يتمناه ؟ هل يعرفه هو نفسه ؟ ومع ذلك فالآمال والرغبات استمرت تلازمه ، وتلاحقه طوال حياته .

لم يرغب في التفكير . غير ان الافكار غمرت قلبه ، وانبسطت أمامه فصول غريبة من حياته . كانت أخته الشابة التي ماتت مبكراً هي صديقه الوحيد الحميم . لقد أحبها اذا كان ذلك النوع من الإلفة يسمى حباً . فكر انه يحب التلال وناسها . لكنهم لم يمنحوه الألفة التي كانت أخته تمنحه اياها . يومها كان صغيراً جداً ، قبل عدة مواسم من ولادته الثانية ، وتساءل عن السبب الذي يدعوه لتذكر تلك الفترة. لكنها ماتت،

والموت هو نهاية كل شيء على هذه الارض . وبعد ان تدفن تتحول إلى روح . تساءل عما اذا كانت اخته روحاً ، روحاً شابة خيّرة . هل كانت تنظر إليه ؟ استدار إلى جهة اخرى خائفاً أكثر من ذي قبل . وشعر بالذنب .

انه رجل خرافات ، يؤمن بأشياء يؤمن بها أهالي التلال . لم تؤثر فيه بعثة سيريانا التبشيرية وتغيّره . لقد حذره والده من أن تفسده عادات الرجل الابيض ، مع انه تساءل احياناً : أليس افساداً ذلك التعليم الذي يحاول نشره بين التلال ؟

أراد أن ينام . وتقلّب في الفراش من جنب إلى جنب محاولاً اغلاق عينيه وابعاد الافكار التي لاتدعه لوحده . فكر : ثمة شيء ما لايمكن تفسيره في مجيء الرجل الابيض الذي لم يواجه أية مقاومة من التلال ، وهاهو يخترق قلب الريف ناشراً تأثيره الذي تمكن من تمزيق الناس وتشتيتهم ، وقد ماتت موثوني على المذبح العالي لهذا التمزق . ماتت بشجاعة . ومن المحتمل انها ماتزال تسعى لحسم النزاع في داخلها ، في محاولة للوصول إلى النور . منذ موتها مضى كل شيء من سيء إلى أسوأ، ولربما كانت نداءات المعارضة والولاء تتنازع في قلوب العديد من الناس. لكنهم قليلون اولئك الذين يشبهون موثوني في شجاعتها . تساءل واياكي عن موقعه . أكان يحاول ان يخلق نظاماً ويجلب النور إلى الظلام ؟ تسارعت في ذهنه صورة اخته . ثم صورة موثوني . ثم صور فتيات كثيرات ، ظلال دونما شكل ثابت لها . ظلال تأتي وتذهب . تندمج احياناً ولاتكوّن شيئاً . بعد ذلك ، وللحظة واحدة غدت حياته غشاوة بيضاء ، الا أنها لم تستمر سوى ثانية ، ثم غطّاها ضباب ، ظلام دون تحديد ، وابتعدت

حافات الحياة الواضحة . استلقى ساكناً . خائفاً بعض الشيء ؛ لايعرف بماذا يفكر ، او كيف يجد له سبيلاً .

بدأ الضباب يتلاشى ببطء. وبدت الحافات كأنها تتشكل. فأصبح بمقدوره ان يرى تخوم شكل يتقدم عبر الضباب الشفيف . انتظر ان يتلاشى نهائياً لكن هذا لم يحدث . بل ظل الشكل ثابتاً . ولم يكن قادراً على زحزحته . حدق فيه ملياً . ثم افتتن به . كان شكل أمرأة لم يستطع ان يميزها . وتلاشت ايضاً . ولم يتمكن من النوم .

ليس حسناً ان تجلس في الفراش وتحدق في الظلام المضبب . نهض ، فصرّ السرير . ارتدى ملابسه بهدوء ، بانفعال داخلي ، بقلق العاشق المشغول بلقاء يوشك ان يتم مع حبيبته . مشى خارج الكوخ . اراد أن يذهب إلى ماكويو ليرى كاماو ، او أي شخص آخر ، رجل قد يفهمه . رجل بمقدوره ان يتحدث إليه .

كان القمر يقظاً أيضاً ، ذا شعاع باهر ، بدا رقيقاً . أكتسى التل والارض المحيطة به ببياض لامع . الاشياء الصغيرة التي تظهر عادية في النهار بدت متغيرة كما لو انها خرجت من باطن الارض مغرية ومخيفة معاً . أصغى إلى أصوات فوق التل لكنه لم يسمع سوى الصمت . وحين اجتاز التل عبر الاشجار والاجمات الصغيرة بدا له الصمت وضوء القمر كأنهما اتحدا في قدرة كلية واحدة نابضة بالحياة . أراد أن يشعر بالتوحد مع الكون كله ؛ مع روح أخته ، مع روح أبيه . تردد . ثم نمت الكآبة في داخله، وازدادت رغبته في الحديث إلى أحد . بدا له سطوع القمر الآن رقيقاً محسوساً . فاستسلم إلى سحره . فتح ذراعيه ، ودّ لو يمسك القمر ، ويقربه من صدره ، لأنه كان متأكداً من ان القمر

كان يصغي . فاراده عبيراً بارداً قربه . بدت عضلاته مرتخية ، وكل شيء حول جسده ذهب توتره .

اضطرب من جديد . وعاد إليه التوق . ملأه وهزّ كل كيانه لدرجة شعر معها بشيء ما سينفجر في داخله . توق . توق . هل ان الحياة كلها توق لاينتهي ؟ أمحكوم على الانسان ان يعيش في فراغ غريب يلاحقه كحيوان خبيث لايدعه يتذوق طعم الراحة ؟ انه لايعرف . وربما لم يعرف أحد من قبل . يجب ان تكون .

واياكي خلق ليخدم القبيلة . هاهو يعيش يوماً بعد يوم من اجل أفكار الآخرين ، وليس من أجل افكاره . منذ عدة فصول وهو يحاول أن يستنزف جهده من أجل الناس ، الأمر الذي مايزال يلحّ عليه .

فجأة ظن انه يعرف مايريد . الحرية . اراد أن يركض ، ان يركض سريعاً إلى أي مكان . او يحوّم بلا هدف ، يتجول في كل مكان مثل روح . سوف يمتلك كل شيء — كل زهرة ، كل شجرة — او سيطير إلى القمر . تخيّل ذلك ممكناً . فرفع بصره إلى السماء . نزف قلبه له . غير انه لم يستطع ان يركض ، ولم يستطع ان يطير .

خطر له كل ذلك بينما كان يمشي . وسرعان ماانحدر باتجاه نهر هونيا . كان صرّار الليل يواصل اصواته الصاخبة المتوالية . وفي قلب واياكي يتردد صدى التدفق الهادىء للنهر . أحس بالارتياح . بدا الماء على غير عادته تحت ضوء القمر . اجتاز النهر . وراح يرتقي المنحدر . متخذاً طريق القطيع الذي يقوده إلى قرية جوشوا — ماكويو . سيصل ويرى كاماو . من الغريب ان تبدو حياته تسير إلى جنب حياة كاماو وكنوثيا في طريق واحد . الحياة التي تأثرت دائماً بالاحداث ذاتها .

حين كانوا فتياناً اعتادوا أن يأخذوا قطعانهم لترعى معاً . وفي سيريانا كان الثلاثة معاً . لكنهم افترقوا لفترة قصيرة بعد ختان واياكي .

انتقل كاماو إلى عالم الرجال بعد اشهر قليلة من الانفصال عن سيريانا ، والآن يعمل الثلاثة في مدرسة ماريوشوني . لبرهة قصيرة استغرق واياكي في افكاره عن كاماو وكنوثيا وحياتهم في المدرسة .

— « اوه » — توقف فجأة . رفع بصره ، كاد أن يصطدم بامرأة . لم يقل كلمة اخرى ، سوى تلك الآهة الفزعة . ولم يتحرك . كانت نيامبورا تقف امامه ، فارتبك .

— اوه ، أهو أنتِ ؟ — قال أخيراً ليكسر الصمت فقط .

— ماعرفتك — قالت بتردد ، وألقت نظرة من خلف كتفيها إلى الوراء .

— اعذريني كنت غارقاً في افكاري .

لم يلتق واياكي بنيامبورا كثيراً . واذا صادف ان التقى بها فليس أكثر من لقاء غرباء . فكر واياكي باليوم الذي رآها فيه قادمة من نهر هونيا وهي تحمل فوق ظهرها يقطينة كبيرة ملئت بالماء . وقتها كان جالساً عند ارض مرتفعة ، عارفاً انها ستمر على مقربة منه . تلك اللحظة أحس بالخوف ، واختفى في الدغل . ظل ينظر إليها وهي ترتقي التل بتثاقل حتّى غابت ، وشعر بالحزن . كان ذلك منذ فصول مضت . لم يفكر خلالها بها. ولا حتّى في هذه الليلة . بغتة تعرف واياكي إلى الشكل الذي رآه في خياله ، والذي رفض ان يتلاشى .

كانت نيامبورا تخشى والدها . اذ تدرك انه سيغضب اذا شاهدها واقفة هناك . لذا كانت وحيدة دائماً . لقد حرمها الموت من رفيقتها

الوحيدة موثوني . هاهي تذهب وحدهـــا إلى النهر ، وحدهـــا إلى الكنيسة . ومن حين لآخر كانت تقيم صداقة مع واحدة او اثنتين من فتيات التل ، لكن اية واحدة منهن لم تحل محل موثوني . غالباً ماكانت تبكي عندما تتذكرها . كما ان الاماكن التي ذهبتا إليها معاً ، والاسرار التي همستا بها معاً كانت دائماً تأتيها فجأة ، وتغرقها ، فتشعر بالألم في أعماقها . الألم يعتصر قلبها حتى يجففه ، فلا تذرف أية دموع . احياناً كانت تهرع إلى نهر هونيا ، وتجلس هناك ، وترقب تدفق الماء . لحظتها تعود إلى البيت مع إحســاس بــالاطمئنان . هــــكذا كــــان النهر رفيقها ، خاصة في أيام الآحاد . انه مكانها الذي تركن إليه على الدوام . كانت علاقتها بوالدها جوشوا تميل إلى الفتور . وعلى الرغم من أنها كانت تطيعه في كل شيء ، وتعتقد ان موثوني ارتكبت خطأ في تمردها عليه ، الا أنها لم تبرئه تماماً من موت اختها . انها ماتزال تعتقد ان الختان خطيئة ، واذ ينتابها مثل هذا الهاجس تتساءل عما اذا كان الموت عقاباً من السماء او لا . غير انها وبطريقة ما لم تكن تتهم اختها بالإثم .

« ــ قل لنيامبورا اني ارى يسوع . » .

كانت دائماً تتذكر تلك الكلمات وتتعلق بها . فتشكر واياكي الذي نقلها إليها . فكرت به . لم تكن تفهمه ابداً . كان يدرس في البعثة التبشيرية ، والآن يقود العناصر المنفصلة عنها . ألم يكن معروفاً في كل مكان ان هذا الشاب هو الذي بدأ بناء المدارس ؟ كانت مدرسة ماريوشوني معروفة في جميع الارجاء . فكرت نيامبورا ان واياكي شخص مغرور . لماذا ؟ لأنه حين يلتقي بها لايتوقف ابداً ليكلمها ، ربما يخشى والدها . انها لاتريد اي شيء منه على الاطلاق . انها غالباً ماتود مناقشة موت موثوني مع شخص ما يفهمها . وكان واياكي الشخص

الوحيد القريب من أختها . كما ان نيامبورا لاتستطيع ان تفكر بموثوني أبداً دون ان يخطر واياكي في ذهنها . احياناً تمنت لو ان واياكي يقيم في جانبهم . ذلك الشاب . القوي ، الذي يعرف اشياء كثيرة ، لكان بمقدورها ان تتحدث معه في مواضيع مختلفة . نادراً ماالتقت به . وحين يحدث ذلك تنتظر منه ان يمنحها فرصة كي تكلمه . لكنه كان دائماً يمضي بعد تحية سريعة . رجل غريب . كانت تخاف منه ، وتعتقد انه يرفض الحديث معها لأنها إبنة جوشوا .

ثانية ألقت نيامبورا نظرة من خلف كتفيها باتجاه بيت اهلها . وهمست في نفسها : هل تتوقف أكثر أم تمضي في طريقها ؟ وسمعت صوته :

ـ أنا ذاهب لرؤية كاماو .

ـ وانا ذاهبة لرؤية جوهانا ، والدي ارسلني لأخبره بأن يأتي إلى بيتنا هذه الليلة .

صمتا قليلاً . ثم ضحكا . خفق قلب واياكي . وقال :

ـ اذن ، نستطيع ان نمشي معاً .

ومشيا ببطء . كان مشتتاً لايعرف ماذا يقول . انه يفكر بها . كانت موثوني سبباً في لقائهما الأول .

نيامبورا طويلة . بقوام جميل . وملامح متناسقة . وتحت ضوء القمر الساطع بمقدوره ان يرى امرأة فيها .

ـ ماذا ستفعل هناك ؟

فكر واياكي : ماذا سأفعل هناك؟ وخطر له انه لايريد رؤية كاماو.

يريدها ، لكن ليس الآن . وفكر بالناس : ماذا سيقولون لو شاهدوهما يمشيان معاً ؟ . في الاعلى كان القمر يحدق بهما ويضيء الارض . لم تكن نيامبورا مختونة ، لكن هذه ليست جريمة . شيء ما مرّ بينهما كأنسانين ، شيء ما لايلوّث الدين . ولا الاعراف الاجتماعية ، ولا أي تقليد .

ـ فقط لرؤية كاماو والعائلة .

أحست بقليل من الاستياء ، اذا اعتقدت انه ذاهب لرؤية كابوني ولمناقشة نشاطاتهم .

وصلا مكاناً ينفصل فيه طريقاهما . وقفا كأن مسكهما شيء من خارجهما . ربما هو سحر القمر الذي ثبتهما في المكان . ودّ واياكي ان يراقص سحر وطقس القمر . تسارعت ضربات قلبه ، وخفق خارج الظلام . وتسمرت نيامبورا وهي تنتظر ، كما لو انها تجسيد لجمال ساكن.

فجأة ، أحس كأن رغباته المتفجرة سوف تهدأ اذا تمكن من لمسها ، لمسها فقط ، من يدها ، او من شعرها . وتماسك . غير ان قلقاً غريباً بدأ يتسلل إليه .

ـ أمازلت تُدرّس ؟

ـ نعم .

ـ لم أر مدرستك ؟

ـ يمكنك ان تأتي يوماً . لكن لماذا لاتأتين غداً بعد الظهر ، بعد نهاية الدوام ؟ استطيع أن آخذك في جولة .

أنه وقت مناسب . ففيه يكون المعلمون والطلاب قد عادوا إلى بيوتهم . وافقت نيامبورا ، وافترقا دون ان يتصافحا حتى . تركته هناك واقفاً ، يرقب اختفاءها . خطا بضع خطوات إلى أمام ، ثم توقف على نحو مفاجيء.واستدار عائداً.فتلك الليلة لم يشعر بميل لرؤية أي شخص آخر .

* * *

الفصل السادس عشر

الساعة هي الرابعة ولم تظهر نيامبورا بعد . كانت المدرسة خالية تقريباً . اذ أن واياكي سمح للاطفال بالذهاب مبكراً ، قبل موعدهم المعتاد . لأنهم اشتغلوا طوال اليوم بملط جدران البناية ، فاختفت الفجوات الواسعة ، وبدت الجدران كما لو انها بنيت من جديد ، وغدا الكوخ أنيقاً ماعدا السقف . على اية حال ، فكر ، انه سيتحدث عن ذلك في اجتماع الآباء . يجب ان يكون الاجتماع كبيراً ، وان يحضره اناس من مختلف مناطق التلال . لقد رسخت ماريوشوني نفسها باعتبارها مركز الروح الجديدة المندفعة عبر التلال . ورغم صغر سن واياكي الا انه اعتبر القائد غير الرسمي لحركة التعليم ، تلك التي ستوقظ التلال حتماً . اما موعد الاجتماع فقد اتفق عليه .

انتظرها واياكي مضطرباً ، ربما لن تأتي . فاستاء ولم يعد يعرف ماذا يفعل . فهو لم يفكر بشيء سوى لقائهما طوال ذلك اليوم . كان كلما سمع وقع اقدام تصوره وقع اقدامها . وكلما رأى رأساً يظهر من بعيد ، خفق قلبه بالأمل . كانت روحه واحاسيسه مشدودة ، متوترة .

لم تأتِ . ولم يكن بوسعه الانتظار أكثر من ذلك . غضب وشعر بخيبة أمل . ولاول مرة فكر بأنها قد تكون الفتاة المغرورة التي صورها

كاماو اثناء احاديثهما . وقتها لم يصدقه ، لكنه الآن يدرك ان ذلك كان حقيقة . اية إمرأة مغرورة ؟ ألأنها إبنة جوشوا ؟ أم لسبب آخر ؟

لماذا يفكر بذلك ؟ ربما خشيت من ان يكتشفها والدها . ولوقت قصير فوجىء بالهوّة القائمة بينهما ، انها كبيرة كتلك الهوّة التي تفصل بين كامينو وماكويو .

وعاد إلى البيت .

كان كوخ أمه والحظيرتان اشارات تتحدى الزمن . تماماً كما هي منذ سنوات . أما كوخ والده فقد أحرق بعد وفاته كما تقتضي العادة ، لم يكن بوسع واياكي أبداً ان يفكر في بيته دون ان تأتي صورة الرجل العجوز في ذهنه . كان من عادة والده ان يجلس في الخارج ، امام البيت حتى يتم حلب الابقار ، وتعود الطيور إلى اعشاشها ، وتغيب الشمس . واحياناً يجلس تحت شجرة العائلة إلى ان يهبط الظلام ويغطي الارض .

ثمة دغل حول الاكواخ ، يمتد حتى يمتزج مع الغابة الخفيضة المنبسطة فوق المنحدر حتى نهر هونيا . خلف وعبر الوادي المواجه لتل كامينو ، كان تل ماكويو المكون من العديد من الاكواخ المستلقية على امتداد القمة في عناقيد صغيرة تشير إلى أسر مختلفة . من بعيد يتراءى لك كأن الاكواخ في بيت واياكي جزء من الدغل والغابة . الواقع ان المكان لم يكن دغلاً فقط ، فثمة حقول صغيرة تحجبها الاشجار .

الآن وقد سقطت الامطار فان واياكي يعرف ان الحياة الخضراء ستظهر قريباً : الفاصولياء والذرة والبازلاء سوف تتفتح ، وتنظر بازدراء إلى الجفاف الذي كان يهدد الريف .

نيجاهي هو فصل الامطار الطويلة . انه الفصل المفضل لدى الجميع ، اذ بحلوله يتأكدون من ان الحصاد سيكون وفيراً ، وقتها تبدأ البازلاء والفاصولياء بالحياة ، فتمنحان الارض اللون والشباب . وفي الايام المشمسة تغمرك الاوراق الخضر وبهجة الزهور البكر بالأمل .

في مثل هذه الاوقات يمكن مشاهدة النسوة في الحقول الصغيرة ، يهذبنها من النباتات والاعشاب الضارة . كلا . لايهذبنها ، انما يتحدثن بلغة سرية مع الغلال والتربة . وثمة اغنيات مرحة تنطلق من شفاه النسوة والاطفال ، فتتأرجح النباتات والاشجار المحيطة كما لو انها تسلّم نفسها إلى لمسة الريح ، كما لو انها تدرك بهجة الأمهات التي بمقدورك اكتشافها من وجوههن المشرقة .

الفرح لايعم النسوة فقط ، انما يعم الابقار والماعز ايضاً . فهي تقفز ، وتضرب الهواء بذيولها التي تلتوي بأشكال مختلفة . والاطفال سعداء أيضاً ، الكبار منهم يعتنون بالصغار . فتراهم يتراكضون هنا وهناك ، او يتجولون بلا هدف كأن جنوناً او ثمَل النحل قد استولى عليهم . لذا كانوا يركضون ويلعبون ، لكنهم كانوا يحترسون من ايذاء الزهور . واياكي مايزال يتذكر كيف إعتاد ان يتعقب أمه إلى الحقل الصغير حيث يتسلق شجرة ماواريكي . هناك ، من حين لآخر تنطلق صرخة من رضيع مهمل ، وتسمع عالية في هدوء الحقول ، وكذلك صوت أمه البعيد يتردد بالحياة والقلق العميق مذكّراً الكبار بالعناية بالصغار .

في المساء يعودون إلى بيوتهم : الأب والاولاد يسوقون قطيع الابقار والماعز . والأمهات يجلبن ماجمعن من الحقل اثناء النهار كي يؤكل في الليل . ثم يجلسون وينتظرون ماتعده ربة البيت من طعام لوجبة المساء . ينشغل الاولاد عادة في الحديث ، بينما يجلس رجل البيت تحت شجرة

العائلة اذا لم يهبط الظلام بعد . فيتأمل أو يتناقش مع واحد او اثنين من الرجال الاكبر سناً الذين يقومون بزيارات قصيرة في مثل هذا الوقت .

لكن اشياء كثيرة تغيرت خلال السنوات القليلة الماضية . اذ تهشم ايقاع الفصول . فالسماء لم تعد تمطر بانتظام ، والشمس بدت وكأنها تشرق لعدة شهور فقط . وجفت الاعشاب . واذا مطرت السماء فالمياه تجرف التربة ، التربة لم تعد تستجيب لنداءات وصلوات الناس . ربما اكتفت بالرجل الأبيض والموالين له في ماكويو ، اولئك الذين لم يحترموا المقدسات .

مكث واياكي خارج البيت عدة دقائق ، تذكر والده ، وتساءل مندهشاً : كم كان سيبدو عجوزاً لو ظل حياً حتى هـذا اليوم ؟ واياكي لم يكن يفهمه أبداً . لقد حاول دائماً ان يفك اللغز الغامض للنبوءة القديمة . هل كان تشيغي يعتقد حقاً ان واياكي سيكون ذلك المخلّص ؟ أهو الذي سيطرد الرجل الأبيض ؟ أهذا هو الخلاص ؟ ثم ماالذي يمكن ان يفعله مخلّص مع مجموعة الرجال الموالين لجوشوا ، أولئك الذين انتموا إلى المعتقد الجديد انتماءً كلياً ؟

أجل ، تمنى واياكي ان يكون قد أدرك على نحو أفضل . كثيراً مافكر بكابوني ، ولم يتوصل إلى معرفة ماينبغي ان يفعله معه . كان كابوني عضواً فعّالاً بين اتباع جوشوا . ثم جاء وقت أصبح فيه الوحيد الذي انبرى لقيادة الذين انفصلوا عن سيريانا . وبعد موت تشيغي اراد أن يكون قائد التلال الرسمي . ربما كان هو المخلّص المنتظر . هل كان كابوني ينظر إلى نفسه كمنقذ ؟ . كان تشيغي قد اخبر واياكي ان من المرجح ان يكون كابوني الرجل الآخر الوحيد الذي يعرف التفاصيل الحقيقية المتعلقة بالنبوءة .

وكابوني عضو في لجنة المدرسة القيادية . وقد اكد معارضته

لإقتراحات واياكي في كل فرصة ممكنة . مرة حين اقترح واياكي بناء مراحيض ، عارضه كابوني قائلاً ان الدغل هو مراحيض مناسبة . ولكن بعد ان ثنّى على مقترح واياكي رجل او رجلان من الأكبر سناً تم الاتفاق عليه . يومها ظل كابوني صامتاً حتى نهاية الاجتماع .

ماأغضب واياكي أكثر من أي شيء آخر هو ان كابوني كان دائماً يذكّره بصغر سنه : « ايها الشاب . نحن شيوخ ، رأينا الكثير ، وجرّبنا الكثير . . . » . تلك هي عادته حين يريد ان يكون مخرّباً . لكن بعض الرجال الاكبر سناً كانوا يلقبونه بـ « المعلم » دلالة على الاحترام .

عندما هبط الظلام دخل إلى كوخه « نيامبورا خيّبت أملي » . فكر لكنه حين تذكر جوشوا والطريقة التي تنكر فيها لإبنته موثوني غفر لنيامبورا عدم مجيئها . ثم هو واياكي نفسه، هل كان متحرراً من الخوف ؟

في اعماقه لم يكن يحبذ ان يراه كابوني واقفاً مع إبنة جوشوا . إمتعض من ذلك ، وتساءل عما اذا كان قد أصبح هو أيضاً عبداً للقبيلة . كان الجميع يراقب نشاطاته لذا غدت حريته مقيّدة . أليس هذا ماكان يريده ؟ الخدمة ! ، الخدمة ! كان يقف دائماً إلى جانب القبيلة مثل والده واجداده من قبل . ثمة قدر كان يدفعه نحو ادارة دفة الأمور ، حسناً ، اذا أرادوا منه أن يقف إلى جانب القبيلة فسيفعل . لقد تنبأ والده بكل ذلك .

شعر بالرضا عن والده . شعر بالفخر من هذا الرجل الذي وقف وحيداً ، دون ان يساعده أحد ، وحمل في صوته عبئاً ثقيلاً من مشاعر الناس وافكارهم ، رغم أنهم لم ينتبهوا إليه. ثم تذكره مرة أخرى بوهج واعجاب جديدين ، لحظتها لم يشعر انه مقيّد ، وقرّر ان يخدم القبيلة ، ويخدمها ، ويخدمها . . .

في كوخه لايوجد أثاث كثير : سرير بائس، طاولة ، وكرسي . كان الكوخ بارداً ، وكل شيء فيه ينطق بالوحدة . أحس واياكي كمن يقتحم المكان عنوة ، مخترقاً الظلام وهو يفتش عن المصباح ، ارتجف قليلاً ، غير ان الوهج الذي في قلبه دفأه .

لم يدفع له الرجال الاكبر سناً مبلغاً كبيراً، لكنه لم يعر ذلك اهتماماً. انه جزء من التضحية . فيما بعد سوف يقرون بالشكر والعرفان له . وسيكون ذلك مرتباً كافياً ، وسيمضي فيما بدأه : المدارس ، والكثير من المدارس . الحصول على ثقافة الرجل الابيض كما اخبره والده . لكنه لن يقتنع بالكثير من المدارس فقط . سوف يحتاج إلى كلية ، إلى معهد من النوع الذي كان ليفنغستون يتحدث عنه دائماً . وقد يحصل على عدد أكبر من المدرسين من نايروبي ، البعيدة ، البعيدة جداً ، تلك التي لم يشاهدها أبداً . لكن هذه المشاريع هي مشاريع للمستقبل . أما الآن فهو يحاول أن يطوّر مدرسة ماريوشوني كي تكون مثالاً للمدارس الأخرى .

راقب اللهب الصغير في المصباح . كان اللهب يرتعش ويلقي ظلالاً باهتة على جدار الكوخ الاسطواني . اللهب معتم فوق الحافات . والدخان يرتفع إلى الأعلى . ثبّت نظره عليه كمن يحدّق في شيء صغير أثناء الحلم . وببطء رفع اصبعه الصغير وحاول ان يلمس اللهب . ثم سحبه بسرعة . ليس من الحكمة ان تلعب بالنار . غضب غضباً شديداً لسبب غير محدد . وكان طرقاً على الباب .

— ادخل .

إنفتح الباب .

ـــ اهلاً ، كنوثيا .

ـــ واياكي !

ـــ هل انت بخير ؟

ـــ بخير .

ظل كنوثيا واقفاً لحظة ، ثم خطا وجلس على السرير ، نظر واياكي إليه ، فتفادى كنوثيا نظرته . وسأل واياكي :

ـــ هل جئت من ، . . . . .

ـــ البيت .

ـــ كيف حال أهل التل ؟ أتمنى ان يكونوا بسلام ؟

ـــ كلهم بخير . كيف حال أمك ؟

ـــ لم أرها بعد . أنذهب إلى كوخها ونرى ماذا أعدت لنا من طعام؟

اتجها نحو كوخها . واياكي لم يفاجأ بزيارة كنوثيا ، فهما غالباً مايزور أحدهما الآخر بدون إشعار .

قال كنوثيا :

ـــ سمعت أنك عضو في مجلس القرية .

ـــ ليس لدي فكرة ، من أخبرك ؟

كان واياكي صادقاً ، اذ لم يحدثه أحد عن المجلس .

ـــ سمعت ذلك من كابوني بعد انتهاء الدوام . ويبدو ان الاكبر سناً يريدونك كاتباً في المجلس . لكن كابوني كان غاضباً . سمعته يحدّث الجميع بأنك ماتزال شاباً ، ولايجوز ان تطلّع على اسرار القبيلة .

صمت كنوثيا ، ثم بنبرة فيها الكثير من الجدية ، والقليل من التحذير استأنف كلامه :

ـــ اعتقد ان كابوني لايحبك ، لو كنت مكانك لأحترست منه .

أحس واياكي بالرغبة في الضحك . ومنع نفسه . تساءل عن سبب عداء كابوني له ، اذ أنه لم يقم بأي عمل يسيء إليه . انتهت الأم من اعداد الطعام . كان المكان كله مليئاً بالكآبة . اشار كنوثيا إلى ذلك وهما يتناولان الطعام. القى واياكي نظرة على أمه التي جلست بعيداً عن الموقد.

كان يحبها ، ثم انه ولدها الوحيد . شعر بالذنب لأنه لم يقض وقتاً كافياً معها . لم يعد الأمر مثلما كان واياكي في فتوته . وقتها اعتاد أن يجلس معها حول الموقد لفترة طويلة من الليل . وكانت تقص عليه الحكايات .

ـــ اعتقد أنك مخطىء ياكنوثيا . لماذا لايحبني كابوني ، فأنا لم أفعل أي شيء يسيء إليه .

ـــ حسد . ـــ قال كنوثيا .

وصمتا وقتاً طويلاً . بعد ذلك تحدثا عن اشياء صغيرة كثيرة عن القرى والمدرسة . وقبل أن يغادر كنوثيا قال لواياكي فجأة :

ـــ كاماو يعتقد انه شاهدك في ماكويو ، في وقت متأخر من الليلة الماضية .

ولم يجب واياكي .



الفصل السابع عشر

حين يعظ جوشوا ففي صوته شيء ما آسر . انه ينطوي على احساس عميق بالايمان ، وبالعهد الذي قطعه على نفسه ازاء الحقائق الاخلاقية التي تكشفت له من خلال الكتاب المقدس . كانت كنيسته تغص بالناس دائماً . وكان هو القائد الروحي لأبناء الرب الذي لاخلاف عليه . لكل اولئك الذين آمنوا بالمعتقد الجديد . انه اليوم يهدر بصوته : « لايوجد انسان مستقيم ، لايوجد . » . انه الصوت الحاد ذاته الذي يلفت انتباه الجميع ، الصوت الذي لم يفقد أياً من سحره .

مايمكن ان يعجب به المرء في صوت جوشوا هو اخلاصه . انه منذ ان اتجه نحو المعتقد الجديد ظل وفياً إلى ليفنغستون وربه . لم يتغيّر او يتذبذب تزمته ولاصرامته . واذا كان تمرد موثوني وموتها قد ثبطا عزيمته فذلك مالم يفصح عنه . وعلى اية حال فقد تبرأ منها . فلم تعد موجودة بالنسبة له . ماالذي ينبغي على المرء ان يفعله مع ابناء الشيطان ؟

الحق ان جوشوا خرج من ذلك الاختبار أكثر إيماناً . حتى انه يعظ الآن بحيوية أكبر . وباعتباره القائد الروحي للتلال فقد عزّزاخلاقية الكنيسة بطاقة مضافة . كل عادات القبيلة كانت سيئة ، وهذا أمر محسوم بالنسبة له . إذن ، ليست هناك أية تسوية او مصالحة . وهكذا

استمر جوشوا بحزمه . يلقي كلمته ، ويرتل أناشيد الحج . انه بالتأكيد الاكثر ثباتاً من الجميع . حتّى تشيغي نفسه ، الذي مات وهو يعارض المعتقد الجديد قد هادن بمعنىً ما على الأقل ، وذلك بسماحه لإبنه بالذهاب إلى سيريانا .

وهو يستمع إلى عظة جوشوا كان واياكي يفكر بكابوني وبمجاس القرية الجديد . استمر جوشوا في الكلام . كان يرفع صوته مرة ، ويخفضه مرة ، ليشير إلى « جميع الذين ارتكبوا خطيئة ، وقصرّوا في تمجيد الرب » .

أجل ، كان صوته صافياً ، ربما أكثر صفاءً من صوت رجل في مثل سنّه . كانت الشمس اللاهبة تزداد كثافة . وكان يمكن سماع أصوات صرير تنبعث من الصفائح المعدنية القديمة الصدئة التي سُقّفت بها كنيسة ماكويو الصغيرة . كان الحشد متوتراً وصامتاً ، يود سماع كل كلمة من رجل الرب هذا ، راعيهم الذي أثبت قدرته ، والذي لاتغلبه اغراءات الشيطان .

وهو جالس في الخلف كان بوسع واياكي ان يرى جوشوا بوضوح ، انه لايعرف سبب وجوده هنا ، انها لمفاجأة حتى بالنسبة له .

« هل استبدلت أمة آلهتها ، دون ان تكون هذه من الآلهة في شيء ؟ لكن قومي قد استبدلوا مجدهم اتقاء مالاينفع . . . وحين نأتي إلى العهد الجديد ، العهد الجديد الذي تحملونه بين ايديكم اليوم ، نقرأ : « وقال يسوع إبحثوا عن ملكوت الرب . . . . » .

فكرّ واياكي : « هذا الرجل يعرف الكتاب المقدس . انه يضمّن كلامه مقتبسات من كتاب الرب » .

« وبعد ذلك ، ايها الاخوة والاخوات ، أقول لكم ، تعالوا إلى يسوع ، قفوا إلى جانبه ، فاذا رأيتموه وهو يساق إلى الصليب ، هل تتخلون عنه ؟ هل تتنكرون له مثلما تنكر له بطرس ؟ تذكروا ان الحياة هنا على الارض نوع من الاختبار ، نوع من المشقة . سيأتيكم الشيطان في الليل ، في بيوتكم ، في حقولكم ، أو حتى هنا في الكنيسة . وسوف يهمس في آذانكم ، ويدعوكم إلى العودة إلى العادات القديمة . — ياتنجوروجي وياجوشوا — سيقول لكم ، إتبعوني ، هذا الطريق الواسع السهل الذي ترونه هنا هو يابني طريق الصواب . تذكروا ، لاتصغوا إلى ذلك الصوت ، دعونا نسير بقلب واحد إلى القدس الجديدة . في الاصحاح الرابع عشر من انجيل يوحنا يقول المسيح : « لاتضطرب قلوبكم ، انتم تؤمنون بالله فآمنوا بي . في بيت أبي منازل كثيرة ، والا فاني كنت قد قلت لكم ، أنا ماضٍ لأعد لكم مكاناً . » .

« ذلك المكان جاهز الآن لكم ولي، للمخلصين، لمجموعة سعيدة من الحجاج الذين سيظلون على الطريق ، ويتغلبون على جميع المشقات . . . واليوم ايها الأخوة ، اذا سمعتم صوت الشيطان ، فلا تدعوا قلوبكم تصغي إليه . »

تلفت جوشوا حوله ، بدا للحظات كما لو أنه يركز نظراته على واياكي . كلا . لم يكن كذلك . كان يلقي نظرة شاملة على جميع الحاضرين . تحدث عن اولئك الذين وجدوا النور ، لكنهم مازالوا حتى حتى الآن يسيرون في الظلام . تحدث عن اولئك الذين ارادوا ان يضعوا أقدامهم على طريقين . كيف يمكنك ان تختار طريقين معاً ؟ « اخوتي ، أخواتي . ليست ثمة مصالحة.سيدنا المسيح لم يصالح عندما ارتقى الصليب لم يمزج طريقين ، بل تمسك بالنور » .

اضطرب واياكي . تذكر انه كان دائماً يتساءل عما ينبغي فعله مع أناس مثل كابوني . في أي موقع يضعهم ؟ ثم انتقل إلى نفسه . أين يقف هو ؟ ربما لايوجد بيت في منتصف الطريق بين ماكويو وكامينو . ثم ماذا عن توحيد التلّين ؟ حتى الآن لايعرف اين موقعه ، لايعرف نفسه . وأحس بكلمات جوشوا تمس عصباً في الزاوية المظلمة من روحه ، لدرجة انه كان خائفاً ، تحدث جوشوا عن التحول إلى : إنسان جديد ، مخلوق جديد ، حياة جديدة ، رفع صوته ، شجب ، تضرّع ، تودد ، وحذّر . ثانية شعر واياكي بالذنب : بالذنب ؟ من أي شيء ؟ ربما من شيء ما يتعلق بالنور ، او شيء ما يتعلق بكونه لم يخلص لصوت والده في الماضي البعيد : « كن مخلصاً للقبيلة وللطقوس القديمة » . مازال واياكي في الكنيسة . انهى جوشوا عظته ولوقت قصير كان هناك صمت شامل في المبنى المقدس . ثم وبصوت واحد بدأ الحاضرون يرتلّون بشكل تلقائي تقريباً :

أنباء سارة هي التي
جاءت إلى مكاننا هذا
أنباء المسيح السارة
أنباء مخلّصنا .

تسلل واياكي إلى الخارج . كان مسروراً لخروجه بينما الآخرون ينشدون . كان قد شعر كما لو انه متطفل او جاسوس داخل الكنيسة . وفي الخارج أحس بقلق في اعماقه . واذ تناهت إليه الترتيلة هجس بذلك التوق الذي لايرتوي ، لشيء ما بعيد ، لشيء ما يحتوي روحه كلها . لماذا جاء إلى هنا ؟ الحق انه كان في طريقه إلى تل آخر ، ولم يكن قد

خطط أصلاً لدخول الكنيسة . لكنّ هناك حقيقة اخرى وهي انه كان داخل الكنيسة . حاول أن يقنع نفسه بان الدافع لدخوله لم يكن نيامبورا اذن ، لماذا أحس بخيبة أمل عندما لم يشاهدها هناك ؟

كان قد أصبح عضواً في مجلس القرية الجديد . بذلك اخبره أحد الرجال الاكبر سناً والذي أُرسِلَ إليه لهذا الغرض . المجلس لم يبدأ أعماله بعد ، لذا لم يعرف واياكي عنه الكثير . لكنه يتعلق بالحفاظ على نقاء القبيلة والتلال . لو رآه الرجال الأكبر سناً في الكنيسة سيعتقدون انه كان يخونهم . ومع ذلك فكر أنه لن يتخلى عنهم أبداً ، سيخدمهم حتى النهاية . وبالمعرفة القليلة التي يملكها سوف ينهض بالقبيلة . أجل ، سيمنحها معرفة الرجل الابيض وأدواته للحد الذي تقوى فيـــه القبيلة في النهاية ، وتتمكن من طرد المستوطنين والمبشرين . ورأى عظمة القبيلة بأبنائها وبناتها المتعلمين الكثيرين الذين يعيشون معاً ، ويفلحون أرض أجدادهم بصفاء دائم ، ويواصلون الطقوس والعادات الجميلة . اولئك الذين سيدينون له جميعهم بالفضل والعرفان .

أحس بتقدير لهذه الفكرة . ربما هذه هي الرسالة ، الرسالة التي سينجزها المُرسَل . أجل ، واياكي سيكافح ، سيكافح. ابتهج بأفكاره حين تطلع إلى نبل هذه الرؤيا . مشى بخطوات خفيفة متابعاً رؤياه ذاتها .

ــ واياكي .

التفت ، فأختفت الرؤيا .

ــ كاماو هل انت بخير . تصافحا .

ــ بخير . من أين جئت ؟

ـــ حسناً ، أوه ، كنت في طريقي إلى التل القادم ، عندما فكرت أن أختلس النظر واكتشف ما يفعله رجل ماكويو العجوز في الآحاد .

ـــ جوشوا ؟

ـــ نعم .

وقفا تحت شجرة بجانب الطريق . نظر واياكي إلى كاماو . عند ذاك مرت نيامبورا على مبعدة منهما . وثب قلب واياكي . راقبها وهي تمشي بهدوء باتجاه الوادي التالي ، حتى اختفت . حوّل بصره إلى كاماو الذي ينظر في الاتجاه الذي اتخذته نيامبورا . اهتاج واياكي على نحو ما . تذكر ماقاله له كنوثيا . وتساءل عما اذا كان كاماو قد رآه مع نيامبورا .

ـــ أنا ذاهب . ـــ قال واياكي . لم يجب كاماو . بدا كما لو أنه يتأمل شيئاً ما . قال أخيراً :

ـــ مارأيك بها ؟

ـــ من ؟

ـــ تلك الفتاة .

ـــ أية فتاة ؟

ـــ عجباً ، نيامبورا ، ألم ترها ؟

ـــ كلا .

لعن واياكي نفسه لأنه كذب على كاماو . لكنه في تلك اللحظة بالذات وجد نفسه في مزاج حقود ، شرير . لم ينتبه كاماو إلى ذلك أبداً انما استمر ينظر إلى الطريق الذي اتخذته الفتاة . وعلى الفور تجسدت أفكاره بقوله : «أعتقد أنها امرأة جميلة» . فجأة أصبح واياكي غيوراً، غيوراً على نيامبورا .

* * *

كانت تنتظره عند الوادي القريب . خفق قلبها عندما رأته يدنو منها . لم تكن تعرف بالضبط ما ستقول له . اذ أنها كانت تشعر بالذنب لاخفاقها في الذهاب إلى مدرسة ماريوشوني في اليوم الذي وعدته فيه . وقتها ارادت ان تذهب ، لكن ذلك لو حدث لكان مغامرة كبيرة . اذ كان والدها في البيت ذلك اليوم . واياكي لم يبارح ذهنها منذ ان التقيا تحت نور القمر . فكرت به ، وتلهفت لرؤيته ، واشرقت عيناها لدرجة لفتت فيها انتباه امها ، فسألتها مرة عمّا تحلم به .

لم تكن تعرف ما كان يحدث لها . لكنها تعرف انها منذ ذلك اللقاء الذي حدث مصادفة لم تعد كما كانت من قبل . الآن تحس بشوق غريب لشيء ما . شيء ما لايستطيع حتى نهر هونيا ان يمنحه لها .

خلال الاسبوعين الاخيرين تمنت ان تلتقي به ، او ان تحييه وتمضي فقط . ولم تتمكن من رؤيته . كما انها خشيت من الذهاب إلى المدرسة ، اليوم لم تذهب إلى الكنيسة ، لذا كانت تتجول بلا هدف عندما رأته يمشي باتجاه الوادي . ولأنه كان واقفاً مع كاماو مرت من مسافة آمنة .

كان واياكي مسروراً برؤيتها . انه لم يلق اية نظرة عليها منذ تلك الليلة . الآن تقف أمامه بهدوء وبحذر شديد . لذلك لم يتبيّنها بوضوح مثلما تبيّنها في ليلة ضوء القمر . لكنه استطاع ان يراها جميلة . اقترب منها بتردد ، وبقلب خافق . إبتسمت ، فكر : انها ابتسامة جميلة .

ــ هل انت بخير ؟

ــ نعم . وانت ؟

ــ انا بخير أيضاً .

صمتا ، لم ينظر أحدهما بعيني الآخر مباشرة .

— لقد انتظرتك .
— أنا آسفة ، لم استطع المجيء . — ترددت قليلاً ثم قالت :
— كان لدي عمل كثير في البيت ، و . . . ولم يتوفر لي الوقت .

فهم واياكي ، او على الاكثر ، اعتقد انه فهم ، ولم يذهب في مناقشة الموضوع أبعد من ذلك .

— حسناً ، بوسعك ان تأتي في يوم آخر .

— طيب ، لااعرف ، ربما ، اذا توفرت فرصة .

اختلس نظرة ، رآها كيف تدير رأسها إلى ناحية أخرى . وعلى الفور أدرك انها جاءت كي تلتقي به . تلك اللحظة ودّ ان يقول لها انه يحبها ، ولم يستطع . لكنه كان يتوق إليها . وعندما غادرها أحس برغبة في أن يضمها إلى صدره ، وان يهمس في أذنها بأشياء كثيرة .

لم تر نيامبورا شيئاً وهي تمضي مسرعة نحو البيت . حين وصلت شرعت تطبخ ، اذ أن امها واباها سيعودان بعد قليل. أعدت الطعام كما او كانت في حلم . واياكي لم يخبرها بشيء ، ومع ذلك أحست باشراق في أعماقها .

عندما عادت أمها من الكنيسة رأتها مضطربة ، قالت :

— ماذا بك نيامبورا ؟ هل توقف ألم معدتك ؟

وتذكرت نيامبورا ان ألم معدتها هو الذي منعها من الذهاب إلى الكنيسة أجابت . بسرعة :

— لا ، لم يتوقف .

كانت تعرف تماماً انها ليست صادقة .

وفي المساء ، حين عاد والدها ، ذهبت إلى الفراش قائلة ان صحتها متعبة .



الفصل الثامن عشر

أمضى وايا كي أياماً منهمكاً في التعليم ، وتنظيم المدارس ، وككاتب في مجلس القرية الجديد باجتماعاته ومراسيمه . فبدا مشغولاً بالعمل ساعة اثر ساعة . وقد أصبح معروفاً في جميع انحاء التلال . الاطفال يعرفونه ويحيّونه ، وينادونه بلقب « معلمنا » . كما يلقبّه الشيوخ والعجائز بـ « المعلم » أيضاً . انه الرجل الذي تشرب بسحر الرجل الابيض ، والذي سيغرق القبيلة بالحكمة والقوة . ويمنحها حياة جديدة . كان يجد متعة في تعليم الاطفال والتعامل معهم أكثر مما يجدها في تنظيم وادارة مجلس القرية . أحياناً كان يعيش لحظات من المشاعر الوطنية والافكار النبيلة فيحس بالبهجة . وبرغبة في فعل أي شيء من أجل الناس .

اقترب كثيراً اليوم المقرر لاجتماع آباء الطلاب من جميع ارجاء التلال . وكان وايا كي يفكر بالضغط اثناء الاجتماع باتجاه انشاء المزيد من المدارس ، مع انه لايعرف كيف سيحصل على المعلمين . وفكر أيضاً أنه قد يتمكن من اقناع بعضهم وجلبهم من سيريانا ، والا سيسافر الى نايروبي في محاولة للحصول عليهم من هناك . ثمة شيء آخر كان يبرز في ذهنه هو انه كان يزداد قناعة كل يوم بالحاجة إلى توحيد كامينو وماكويو ، فالعداء القديم سيشل جهوده في التعليم ، لذا اراد أن يصلح

بين اتباع جوشوا والآخرين . فالهوة كانت تتسع ، وهو يريد أن يكون أداة التقارب بينهم . أجل ، كلمة واحدة منه في الاجتماع القريب قد تكون بداية هامة .

سيكون الاجتماع ايضاً فرصة مناسبة لإعلان موقفه . هذه ليست خطة . هذه قناعة ، تشكلت في البدء مثل غواية ذات صدى باهت ، ثم غدت امكانية بعيدة ، والآن أصبحت حاجة ، ألن يكون ذلك مغامرة بالنسبة لشعبيته النامية ؟ ومع ذلك سيحاول . كان يشعر بسعادة أكبر حين يفكر بأن نيامبورا سوف تسمع موقفه وتفخر .

إمتلأت الساحة المعشبة بالرجال والنساء الذين جاءوا من كل زاوية في الريف . بعضهم جاء ليسمع تقريراً عن تقدم أطفاله . والبعض الآخر جاء ليرى مدرسة ماريوشوني الشهيرة أو لرؤية المعلم. لقد سمعوا عن الشاب لكنهم لم يروه أبداً . انها فرصة لاتفوّت . « المعلم » هكذا تهامسوا من تل إلى تل . وكان اللقب يشير إلى رجل واحد فقط هو واياكي . بذلك انتشرت شهرته بين المرتفعات مثل نار في دغل جاف . لقد رأى فيه الكل ذلك التجسيد المجدد لما مضى من عزة ونقاء .

كانت المدرسة انيقة . شاهد الناس فيها كل شيء . شاهدوا ثمرة جهودهم ، ورمز تحديهم للعادات الاجنبية .

تجولوا حولها ، وأعجبوا بجدرانها الطينية المحكمة . وتحدثوا كثيراً عن حدائق الزهور الصغيرة التي انتشرت هنا وهناك فوق الارض المعشبة . رأى الآباء ذلك باعتباره ثمار عملهم وعرقهم وصبرهم .

لقد أصبح بمقدور أولادهم أن يتكلموا لغة أجنبية ، أن يقرأوا

فعلاً . الأمر الذي تم بالضد من إجراء سيريانا الصارم ، الرافض لأي طفل لايتخلى والدُه عن الشعائر القديمة .

برفقة زملائه كان واياكي الاكثر اهتماماً بالناس . اختلط معهم ، واخذهم إلى أماكن مختلفة . شرح لهم مشاريعه ، عبّأ ودافع بصراحة عن خططه قبل مجيء الاختبارالحقيقي . فأعجب به الناس ، واحبوا فيه اهتمامه الكبير ، والطريقة التي تحدث بها . كانت له كلمة مع كل شخص ، وابتسامة مع الجميع . شعر بالسرور من كثيرين . لكن ليس من الجميع ، ففي تلك اللحظات تكشف الحسد والحقد .

لم يكن كابوني يحب واياكي ، فهو نفسه قد عمل من أجل القبيلة ، وقاد حركة الانفصال عن سيريانا . وإليه يرجع الفضل في بدء مدارس الناس الخاصة بهم . ثم ألم يكن قائداً في كل الميادين ؟ كان يعتبر واياكي شخصاً تافهاً تألق نجمه فجأة ، فتى بأفكار حمقاء . وكان واياكي يبدو مجرد فتى في مواجهة اي شخص مثل كابوني الذي كان عمره وتجربته يؤهلانه لإهتمام اعظم من قبل الناس . وهكذا جرت الأمور على نحو غير طبيعي . ربما لم يصبح كابوني عدوانياً إلى هذه الدرجة لو أن كاماو ، إبنه ، أحتل موقع واياكي . كان كاماو معلماً جيداً كالآخرين . وكان واضحاً انه اكبر سناً من واياكي ، لذلك كان ممكناً ان يصبح في موقع قيادي أفضل . غير أن أحداً لايستطيع ان يخمن مدى استياء كابوني من صعود واياكي . كابوني هو الوحيد بين الناس الذي كان يعرف النبوءة. كما انه يخشى من أن يكون واياكي هو المُرسَل . انه يمقت ذلك .

كان من المقرر ان يعقد الاجتماع مبكراً ، لكن مجيء الشيوخ يستغرق وقتاً طويلاً دائماً ، الأمر الذي جعل الاجتماع يبدأ فعلياً بعد

الظهر . افتتح واياكي الجلسة بقراءة النقاط التي سيجري بحثها وسط صمت تام . ومع ان صوته كان هادئاً الا أن قلبه كان يخفق في داخله ، اذ خاف من عدد العيون التي أمامه . . بعد الكلمات القليلة الأولى اعلن ان الاطفال سوف ينشدون بعض أناشيد الترحيب . لم يكن واياكي هو الذي كتب الأناشيد ، انما تعلمها في سيريانا من فتى يسكن في ماوراء التلال . لكنها بالنسبة للآباء وللمعلمين الذين اجتمعوا في ذلك اليوم كانت شيئاً جديداً ، شيئاً أثّر في قلوبهم ، وعبّر عما يشعرون به .

ياأبي ، وياأمي
جهزوني بقلم وطاولة من حجر
فأنا أريد أن أتعلم
فقد ذهبت الارض
ولم تعد هناك الابقار والأغنام
لم تعد هناك
ماالذي تبقى اذن ؟
التعليم ، التعليم .

*

أبي ، لو كان لديك الكثير من الابقار والاغنام
لطلبت منك رمحاً ودرعاً
لكني الآن
لاأريد الرمح
ولاأريد الدرع
أريد رمح ودرع التعليم .

تلك الكلمات البسيطة جعلت بعض العيون تذرف دمعاً . ودفعت الآباء إلى التصميم على العمل . سوف يجهدون أنفسهم. فالرجل الأبيض يسرق الارض ببطء ، ويفسد عادات القبيلة . يجب أن تتغير اشياء الآن . قد يستغرق ذلك سنوات ، لكن في المدى البعيد ، في المستقبل المجهول ، ستختلف الأمور ، فالمنقذ جاء . فتح عيون الناس،وايقظ الأسود النائمة . انها الآن تزأر ، تزأر للنصر ، والاطفال يتعلمون ، واصواتهم ترتفع أعلى فأعلى :

يا أبي
حرب الدرع والرمح
انتهت
ماالذي تبقى اذن ؟
معركة المواهب
معركة العقل
أنا ، نحن ، كلنا نريد أن نتعلم .

أجهد الشيوخ من الرجال والنساء آذانهم كي يقبضوا على الكلمات الجميلة . وضغطت أيديهم بقوة على قلوبهم أو ذقونهم . وكابوني يتلوى في اعماقه . وقلبه وروحه يتوقدان بالغضب . ذلك ان « الفتى » اعطى انطباعاً حسنـــاً ، بينما هو ينوي الغاءه . لقد شوهد « الفتى » في كنيسة جوشوا ، كما شوهد واقفاً مع إبنته ، نيامبورا . لذا أراد كابوني أن يحبط جهوده أمام الحشد .

لكن الاطفال استمروا في الغناء ، معبّرين عن صرخة الكثيرين ، ومتحدثين بصوت عالٍ عن صيحة الأجيال الصامتة في كل مكان ،

الاجيال الذين شعروا ان نهايتهم قريبة اذا لم يكن ثمة تغيير . أكانوا يؤبنون مجداً ميتاً ؟ أكانوا يأسفون على خراب القبيلة ؟ أكانوا يرحبون بالتغييرات التي كانت تتقدم ؟ . كان في عيونهم أسف أو توق ، يمكن رؤيتهما منعكسين في عيني المخلّص اللامعتين .

انهى الطلاب أناشيدهم وجلسوا . عم صمت غريب . ثم من كل زاوية انطلق صراخ ، وغنّى الجميع بصوت واحد :

غيكويو ومومبي
غيكويو ومومبي
تركوا لنا أرضاً خصبة ، بكراً
آه ، تعالوا معاً . . . .

حين تحدث واياكي ثانية أحس بالسعادة . انها اللحظة التي سيعلن فيها عن مشاريعه . تكلّم بهدوء ووضوح . كما ان الابتهاج بالحديث إلى حشد كبير جعله يشعر بالاشراق في اعماقه . حدّد باختصار خططه من أجل مدرسة ماريوشوني : السقف البالي بحاجة إلى صفائح معدنية جديدة . والاطفال بحاجة إلى مقاعد واقلام وورق . ثم هناك الكثير من المدارس التي يجب أن تبنى ،والكثير من المعلمين الذين يجب أن يستخدموا. وجلس قلقاً من أن لايكون هدفه واضحاً . لكن التصفيق الذي حيّاه بدّد عنه الشك حول استقبالهم لخطابه القصير .

بعد لحظة فقط نهض كابوني . لم يبتسم ، بل نظر حوله بتحد . ها هي المعركة تبدأ الآن . كان عجوزاً لكن صوته ثابت ، قوي . كما انه يعرف جمهوره جيداً ، ويعرف ما يروق لهم . كان بوسعه ان يتحدث بالامثال والألغاز ، ولاشيء يروق أكثر من ذلك بالنسبة للشيوخ الذين

مايزالون يقدرّون المثل البارع واللغز الذكي . وكابوني يعرف حدوده أيضاً . فهو لايعرض عدة قضايا في وقت واحد . لذلك قرر أن يترك قضية جوشوا ليعود إليها فيما بعد كي تكون الضربة النهائية .

ذكّرهم بجدب الارض ، والاشهر الجافة التي تركت الناس دون أن يجدوا شيئاً يأكلونه ، والحصاد المتوقع ألا يعطي غلة وفيرة . ثم أتى إلى الارض التي استولى عليها الرجل الأبيض ، فتحدث عن الضرائب الجديدة التي يفرضها المختر الحكومي على الناس . فبدلاً من أن يقود واياكي الناس ضد هذه المشكلات الملحة يتحدث عن بناء المزيد من المدارس . أنرهق الناس بالمزيد من المدارس ؟ بالمزيد من المعلمين ؟ وهل أن ثقافة الرجل الابيض ضرورية فعلاً ؟ بالتأكيد هناك وسيلة أخرى ، وهي الوسيلة الأفضل لطرد الرجل الأبيض من التلال كلها . أكان الناس يخافون ؟ ألم يتبق محاربون في القبيلة ؟ هو كابوني سيقودهم ، وهذا هو سبب تشكيله لمجلس القرية الجديد . انه سوف ينقذ البلاد من أثر الرجل الأبيض ، وسيحافظ على نقاء القبيلة وحكمتها .

« وهل تعتقدون ان ثقافة قبيلتنا ، ثقافتها وحكمتها اللتين تعلمتموهما كلكم ، هما أقل من ثقافة وحكمة الرجل الأبيض ؟

تحداهم ، تحدى حاضرهم ، ناشدهم بافتخارهم ، برجولتهم وبولائهم للأرض .

« لاتقبلوا بقيادة الشاب ، هل سمعتم ان الذيل يقود الرأس ، والطفل يقود الأب ، والشبل يقود الأسد ؟ »

صفّق قليل من الناس . وساد صمت . (لقد أثار كابوني شيئاً ما في قلوبهم أيضاً .) وعلى الفور أخذوا يتكلمون فيما بينهم . بعضهم رأى

حقيقة أكبر فيماقاله كابوني . انهم أدرى بكونهم ليسوا جبناء . كما أن من اليسير عليهم طرد الرجل الابيض والعودة إلى العادات القديمة ! لكن آخرين ، وخاصة الشباب منهم كانوا إلى جانب واياكي الذي شعر بالألم . فكابوني لامس موضعاً متقرحاً منه ، لامس مسألة صغر سنه .

حين نهض واياكي ثانية عاد التحدي القديم ، عادت إليه الشجاعة التي عرفته بين الفتيان الذين في مثل سنه . في البدء نظر إلى الناس فقط ، شملهم بنظراته . ثم فتح فمه وتكلم . كان صوته يشبه صوت أبيه ، كلا ، كان يشبه صوت رجال ريف غيكويو القدماء المبجلين . هنا ، عاد المخلّص ، الوحيد الذي تلامس كلماته ارواح الناس . استمعوا إليه ، وتأثرت قلوبهم بذبذبات صوته . ومثل راعٍ يتحدث إلى قطيعه تفادى أية كلمة قد تكون مهينة . لكن ، كيف يتمكن من رد حجة كابوني ؟ واياكي قال لهم انه ابنهم ، وهم آباؤه وامهاته . انه لايريد ان يقود أحداً . فالرجال الأكبر سناً هم الذين يرشدون ويقودون الشباب . وعلى الشباب أن يصغوا وأن يسيروا في طريق الحكمة . هو واياكي نفسه سوف يصغي إليهم . كل الذي يريده هو أن يخدم التلال ، ان يخدم المرتفعات التي لايمكن ان تظل نائية ، لايمكن ان تظل معزولة أبداً بعد الآن . واذا لم ينتبه الناس إلى كلماته ومشاريعه فالمرتفعات سوف تفقد كرامتها الماضية ، سوف تتخلف كثيراً عن الريف الذي يقع في ما خلفها .

هكذا استمر في الكلام مشيراً إلى أهمية التعليم ، إلى اهمية اكتساب كل مايستطيع المرء اكتسابه من الحكمة . ارادوه أن يستمر ، وان يلقي عليهم كلمات الحكمة الجميلة . واذ جلس نهضوا ، وكما لو كانوا صوتاً واحداً هتفوا :

« المعلم ! المعلم ! نريد المعلم » .

وهتف آخرون :

« يجب أن يتعلم أطفالنا ، ارشدنا إلى الطريق وسنتبعك . » .

ماذا يريد واياكي أكثر من ذلك ؟ أحس بالبهجة والسعادة ، وأدرك اقرارهم بفضله .

تحدث الرجال الاكبر سناً ، والمعلمون ، لكنهم لم يضيفوا أي شيء سوى امتداح المعلم . بعد ذلك انتخبت لجنة من داخل التل للاشراف على التعليم ، ولرعاية المدارس الجديدة في الريف . ولم ينتخب كابوني عضواً فيها .

ـ كاماو ، ابني .

ـ نعم ياأبي .

ـ ساقاي ترتجفان .

ـ لماذا ؟ هل أنت مريض ياأبي ؟

ـ نعم . لا . فقط ساقاي . انهما منهكتان . خذ عصاي وقدني إلى البيت .

الذين من حولهما شاهدوا كاماو وهو يقود والده كابوني . كاماو أحد المعلمين لدى واياكي . وعلى الفور أدرك الناس مبتسمين ان كابوني مريض . والحق انه لم يكن مريضاً فعلاً . كان مليئاً بالغضب . أيرضى بهزيمة أمام الجميع ! أو باذلال ! أبداً . لامجال لتصور ذلك . ولاينبغي قط تصور ذلك .

ـ استطيع أن اقتله .

– تقتل من ياأبي ؟

كانا يقفان فوق التل ، نظر كابوني إلى ابنه . وقال :

– انت شخص لافائدة منك – انفجر بوجهه – هل انت إبني ؟ ألم يكن بمقدورك إزاحته منذ وقت بعيد ؟ من هو حتى يكون في هذا الموقع ؟

ولم يجب كاماو . كانت تنتابه أفكار مريرة هو الآخر . هل سيبقى هو ووالده يقاسيان من سيطرة واياكي ؟

* *

خلال اشهر قليلة تغير وجه المدرسة . كما اقيم المزيد من المدارس في عدد من المرتفعات الأخرى . واتسعت شهرة واياكي ، ووثق منه الرجال الاكبر سناً . تحدثوا عنه في بيوتهم وحقولهم ، حتى كابوني بدا مستسلماً لقيادة الرجل الشاب . لقد كان ذلك ضرباً من الايمان ، خفياً ، مذعناً . كان شيئاً ضبابياً اذا ما ادركه أحد . لكنه قائدهم ، ويعرفون انه لن يخذلهم أبداً . كان نداً للرجال البيض ، اولئك الذين أرادوا إبادة غيكويو وومبي . غير ان القبيلة سوف تتغلب وتنتصر على المبشرين ، على التجار ، على الحكومة ، وعلى كل الذين يحاكون الغرباء .

لو كان واياكي مدركاً تماماً لهذا الايمان في اعماقه لخشي منه . لكنه لم يكن كذلك . اذ أن فكرة التعليم غدت مثل شبح يلازمه . تدفعه للمضي قدماً ، لأن يفعل الكثير .

حتى فيما بعد ، عندما أجبره اعضاء مجلس القرية من خلال حماستهم المفرطة على أن يؤدي يمين الولاء من أجل نقاء ووحدة القبيلة

لم يتوقف ليفسر ما اذا كان ثمة خطر يكمن في قسَم كهذا . كابوني لم يعد موجوداً . وكان واياكي يرى مدارس فقط ، مدارس في كل مكان ، وعطشاً يلهب حناجر العديد من الاطفال الذين يرفعون أبصارهم إليه من أجل الماء الذي يروي ظمأهم .

أراد أن يشعر الجميع بالرغبة في الحصول على هذا الماء . اراد حتى جوشوا واتباعه أن يأتوا وينضموا إليهم . التعليم هو الحياة . دعها تأتي . وبشعور مباغت بالذنب تذكر انه نسي ان يتحدث عن المصالحة .



الفصل التاسع عشر

طوال حياته ظل جوشوا يحاول كسب المزيد والمزيد من الناس إلى الدين الجديد . كما ظل يتمتع بطاقة هائلة حتّى في شيخوخته . وقد ظن إنه نجح في مهمته . والحق انه نجح في البداية . يومها جاء إليه كثيرون . وعُمدَ كثيرون . ثم ألم يكن مسؤولاً عن إقناع الرجال الأكبر سناً كي يرسلوا أبناءهم إلى سيريافا لسماع كلمات المسيح والتعليم على يد الرجل الأبيض ؟

الآن ، بدت الحياة وكأنها تعمل ضده . فكثيرون ممن انضموا إليه متحمسين قد انفضوا عنه ، وعادوا إلى تقاليدهم وشعائرهم القديمة . وكثيرون أيضاً تزوجوا من إمرأة ثانية. غير ان جوشوا لم ير أي ضير في اتخاذ زوجة ثانية . كان دائماً يفكر حائراً بحقيقة ان رجال العهد القديم الذين اعتادوا السير مع الرب والملائكة كانوا يتخذون أكثر من زوجة واحدة . لكن الرجل في البعثة التبشيرية اعتبر ذلك خطيئة . فكانت خطيئة . ولم يكن جوشوا على استعداد لأن يتساءل عما يعرفه بصدد الوحي الإلهي للرجل الأبيض . فالرجل الأبيض هو الذي جاءب الدين المسيحي إلى الريف .

مايقلق جوشوا ليس فقط عودة الكثير من الناس إلى عادات القبيلة

الشيطانية كالختان . بل كان بمقدوره أن ينتصر على تمرد موثوني حتى . انما الذي يقلقه هو التهديد القادم من صعود واياكي ، قائد القبيلة ، المثقف ، الشاب . الآن وقد بنيت العديد من المدارس من خلال جهود واياكي فان العديد من نعاجه قد ينضم إلى قطيع واياكي دونما ضرورة ملحة . وازاء هذه المخاوف إتصل جوشوا برجال البعثة التبشيرية كي يسمحوا له وللمخلصين الآخرين ببناء مدرسة او اثنتين يتعلم فيها الأطفال قبل ان يذهبوا إلى سيريانا . وهكذا بنيت مدرستان ، احداهما في ماكويو والثانية قرب نيجنيا ، واحرزتا تقدماً ملحوظاً . وقد تشكلان خلال فترة قصيرة تحدياً واضحاً لواياكي .

الاجتماع الكبير الذي عقد في كامينو فاجأ الكثيرين ، وجعل جوشوا يدرك أكثر من أي وقت سابق ان قوى الشر ليست ضعيفة . ومنذ ذلك الاجتماع بدا الدخول إلى كامينو ، قلعة الشيطان أمراً حيوّياً . فجندي المسيح ليس لديه مايخشى عليه . وهكذا عقد اجتماع في كامينو لأتباع جوشوا ولأي شخص آخر رغب في الحضور .

كان الاجتماع في يوم الأحد. حضره مسيحيون من التلال المجاورة. بعضهم جاء من اماكن بعيدة ، اذ أن أنباء انعقاد الأجتماع كانت قد انتشرت على نطاق واسع . رتّلوا الاناشيد ، وسبّحوا باسم الرب ، وصلّوا . وتحدث جوشوا بقدرة وحيويّة كبيرتين لدرجة قال العديدون فيما بعد انه كان يتكلم بألسنة الملائكة . وقال آخرون ان ملاك الرب قد ظهر له . وقسم منهم مايزال يعتقد أن العذراء هي التي كانت تكلّمه .

إثر ذلك تحوّل أناس قليلون إلى المعتقد الجديد ، وكانت بداية حسنة ، لأنها المرة الأولى التي يصبح فيها لجوشوا اتباع في كامينو . ولاشك ان

آخرين سوف يتبعونهم . كان ذلك تحدياً للرجال الاكبر سناً وإلى الذين يؤيدون التقاليد القبائلية .

شاهد واياكي الاجتماع ، شاهد الموالين الجدد وهم يحتشدون ويُسبِّحون ، شاهد كل ذلك وهو في كوخه المواجه لمكان الاجتماع ؛ ولم يكشف عن مشاعره ازاء التحدي الواضح ، ربما لم يبال للأمر ثم انه هو نفسه كان يحب بعض التعاليم المسيحية . ذلك ان عنصر الحب والتضحية قد انسجم مع حاجته الروحية . وكثيراً ما أثرت به معاناة المسيح في حديقة جثسيماني وآلامه على الصليب . لكنه لايريد ان يخون القبيلة ، ألم يخنها فعلاً بعد ؟ اراد أن يجتاز الهوّة القائمة بين جوشوا والآخرين . لأجل أي شيء ؟ ، لم يتوقف ليجيب عن هذا السؤال . انه الشعور الذي حدّد رسالته قبل الاجتماع الذي كشف عن صعود مجده . كان قد اعد نفسه لهذه الرسالة ، التي هي : إنهاء النزاع بين كامينو وماكويو واستعادة وحدة القبيلة . ولكن حين سنحت له الفرصة أخفق في الافادة منها ، ولم يقل كلمته . لقد أثملته الدهشة والغضب والمفاجأة ونسي نفسه . الفرصة سنحت ، ومضت . ولو كان يود الاطمئنان لتحدث صراحة عن الصلح .

« وقت آخر ، مرة قادمة » بهذا يكلّم نفسه دائماً حين يمر بلحظات لوم كهذه . لكنـــه كان فرحـــاً بطريقـــة مـــا ، فالتعليم رسالته الحقيقية ، ولعـــه . انه يحتاج المساعدة والتعاون من الجميع حتى من جوشوا وكابوني . لقد سموه المخلّص ، كان والده قد تحدث عن مسيح سيأتي . من هو المسيح الذي سيأتي منقذاً ومخلّصاً ؟ من اين ، وإلى اين سيقود الناس ؟ . ومع ان واياكي لم يتوقف من أجل اجوبة لتلك الاسئلة الا انه كان يرى نفسه باستمرار الشخص الذي سيقود القبيلة إلى النور . التعليم هو نور الريف . وهو مايريده الناس . التعليم ، المدارس

التعليم . ولم ير اية علاقة بين رسالته التعليمية وبين ماكان يفعله مجلس القرية . فتعليم الجميع هو ماكان يتمناه فقط . والوحدة هي الجواب . لكنه كان يخاف احياناً ، اذ ان جوشوا واتباعه قد صُنّفوا تماماً مع الرجل الابيض . والآن مع وقاحة جوشوا إلواضحة ، ومع تحديه الصريح فان واياكي لايستطيع ان يتخيل ما سيحدث . ماالذي سيفعله مجلس القرية ؟ لقد استقال واياكي منه . ولم يعد يعرف ما سيقدم عليه جماعة كابوني المتنفذة في المجلس الذي يسيطر بطريقة ما على اسرار التلال . بعد استقالته أحتل كاماو موقعه . والحقيقة ان واياكي نفسه هو الذي أقترح اسم كاماو . أكان ذلك استرضاءً ؟ انه لايعرف . كل الذي اراده هو تكريس اهتمامه وطاقته للرسالة التي شرع في تنفيذها . آما مجلس القرية فبمقدوره ان يهتم ببقاء القبيلة .

تطلّع واياكي ثانية ، وشاهد الاجتماع المسيحي . استمتع كثيراً بذلك المشهد الانساني . وخطرت له فكرة : نيامبورا قد تكون هناك . وارتجف قلبه قليلاً . انه يضطرب دائماً حين تخطر له فكرة رؤيتها . وكلما فكر بها كثيراً ادرك حبه لها . انه لأمر غريب بالنسبة لواياكي . إذ لم يفصح عن اهتمام واضح بالنساء ، فقد تركزت كل فكرته عن الحياة والهدف فيها : خدمة القبيلة . وعلى الرغم من ندرة لقاءاتهما الا انه في كل لقاء كان يود إخبارها . لكنه كان يفكر انها ستهاجمه ، وستقول له ان عليه ان يخجل من نفسه . كلا ، لن يغامر بذلك . فثمة هوّة بينهما . كما انه يشعر دائماً بالارتباك حين يقف امامها . خرج واياكي من كوخه واتخذ طريقاً معاكساً يبعده عن مكان الاجتماع . وبعد مسافة معينة إنعطف يساراً ، وبدأ يمشي نحو نهر هونيا . كان هناك أناس يسيرون باتجاه كامينو ، مرّوا على مقربة منه ، وواصلوا سيرهم .

كانوا ذاهبين إلى الاجتماع . إنعطف ثانية إلى اليسار . وراح يمشي على امتداد النهر . لم تكن الشمس شاهقة في السماء . ظلال الاشجار كانت طويلة ومتقاطعة مع بعضها ،ونهر هونيا يجري متدفقاً . مشى واياكي ببطء كما لو أنه يتجه إلى مكان محدد . فجأة توقف لبرهة وجيزة . دقّ قلبه دقتين سريعتين . انها نيامبورا !

لم تكن نيامبورا سعيدة في بيت والدها . وقد بدا كل يوم تمضيه هناك وكأنه يضيف ثقلاً اكبر عليها . كان قلبها مضطرباً ، وكانت تدرك ان لاشيء في البيت يمكن ان يقنعها .

كل يوم كانت تفكر كثيراً بواياكي وبلحظات السعادة التي تقضيها معه . وكانت تفخر بشهرته التي غالباً ما شعرت انها تشاركه فيها . لقد غذّت هذا الشعور في قلبها وتعلقت به كما لو أن الشهرة كانت شهرتها. ومع ان اسمه لم يذكر في بيتها كأسم موثوني لكنها تشتاق إليه دائماً، الى سماع صوته . لقد التقيا في مناسبات قليلة جداً ، اغلبها بطريق الصدفة . لماذا لايكون بمقدورها ان تشعر بحرية اللقاء به ، وفي أي مكان ؟ ان تشعر بحرية الذهاب إليه ورؤيته ؟ ويوماً اثر يوم راحت تزداد قلقاً من هذا الضرب من تديّن جوشوا . هل ستتمرد هي ايضاً ؟ كلا . لن تفعل مافعلته اختها. كانت تدرك انه ينبغي ان يكون لها رب يمنح حياتها الامتلاء ، رب يحل السكينة في روحها المضطربة . لذا تشبثت بالمسيح لأنه مات على الصليب، بينما حب جميع البشر يتدفق من عينيه الحزينتين.

تمنت لو أن بمقدوره ان يكون قربها ، للحد الذي تتمكن فيه من غسل وتضميد جراحه . وحسدت العذراء ، العذراء التي مسحت قدمي المسيح بالزيت . تضرعت للمسيح ألا يتركها . حتى ذلك لم يكن دائماً

يقنعها ، كانت تتوق إلى شخص ما تتحدث إليه ، شخص ما تستطيع فعلاً أن تلمسه وتحس به ، وليس المسيح الذي ارتقى إلى السماء في السنوات الغابرة ، المسيح الذي بمقدوره فقط ان يتحدث إليها في الروح . لو انها تتمكن من اللقاء الدائم بواياكي ، لو انه يتمكن من البقاء إلى جانبها لأتخذ المسيح معنىً أوسع بالنسبة لها . لكن واياكي غدا رجلاً هاماً . ثم انه في الطرف الآخر ! ولربما سيستمران هكذا ، يفصلهما عن بعضهما واد كبير عميق ،ساعتها لن يكون بمقدور المسيح إنقاذها . ذلك ان المسيح الذي ارتقى إلى السماء بوسعهان يكون ذا معنى لها بمقدار ما يكون واياكي معها ،تلمسه،وتحس به، وتتحدث إليه . بوسعها ان تُنقذ فقط من خلال واياكي . اذن ، كان واياكي مخلّصها ، مسيحها الاسود ، الشخص الموعود الذي سيأتي ويقودها في طريق النور .

قالت موثوني انها رأت يسوع . حدث ذلك عبر عودتها إلى القبيلة ، عبر تزاوج شعائر القبيلة والمسيح . موثوني رأته من خلال المعاناة . لقد ختنت وقالت انها اصبحت امرأة . نيامبورا تريد ان تصبح امرأة ايضاً . لكنها تستطيع فقط ان تكون كذلك اذا تكلّم واياكي معها ، اذا وقف قربها ، وقتها سترى المسيح .

ظلت نيامبورا مع شكوكها . ولم تميز مشاعرها ازاء واياكي على انها حب . حدثت نفسها انها لاتحبه لأنها لاتشعر نحوه كما تشعر نحو أمها او نحو موثوني . غير انها كانت تراه كشيء ما كبير ، ثابت واكيد . واذا انهارت الارض فسوف تتمسك به وتحيا . احياناً كانت تبكي وتسأل الرب أن يغفر لها ، اذ أنها ماتزال تود أن تبقى مخلصة لوالدها ، ان تطيعه . ثم ان واياكي بعيد جداً عنها ، ولايهتم بها . انه معلم ، قائد

كبير ، جهوده كلها تنصب على الاطفال الكثيرين ، من مختلف انحاء الريف الذين يذهبون الآن إلى المدرسة . وماذا بعد ؟ هل ان رجلاً كهذا سيهتم بها ؟ رجلاً لديه ما يكفي من الامور الكبيرة ليفكر بها ؟ هل ان رجلاً كهذا يقيّد نفسه بفتاة لم تختن ، إبنة رجل يقود الطرف الآخر ؟ في مثل هذه الاوقات كانت تصلي من أجل ان تبقى مخلصة لوالدها . انه لشيء حسن بالنسبة لها ان تبقى معه ، ان تطيعه ، بدلاً من المغامرة في المجهول المظلم .

ومع ذلك كانت تقلق ، ويغدو الذهاب إلى الكنيسة عبئاً عليها ، خاصة برفقة والدها . كانت دائماً تتخلف عنه ، وتمشي ببطء ، ببطء . واحياناً لاتذهب إلى الكنيسة ، إنما إلى نهر هونيا . فهناك تجد السكينة . تصلي للرب . وتتذكر أختها .

ذلك اليوم كانت نيامبورا حزينة فلم تذهب إلى الاجتماع ، مع انه عقد في المكان المفضل لديها . لم تكن لتجد أي هدوء . أحنت رأسها إلى الاسفل . وبينما كان النهر يهمهم في اعماقه تضرعت بحرقة وسألت الرب أن يمنحها الهدوء والنور اللذين تتطلع إليهما .

خدر سار شلّ حركة واياكي . توقف . إتكأ على شجرة وراقب ظهور نيامبورا . كانت في الضفة المقابلة ، في مكان مسطح نظيف تخفيه إلى حد ما ادغال قصيرة . لم يستطع واياكي ان يكتشف لماذا يذكره المكان كثيراً بالأيكة المقدسة التي أخذه والده إليها قبل أمد طويل وكشف له عن النبوءة القديمة . هذا المكان الذي هي فيه مكان مقدس أيضاً . بدت نيامبورا كما لو أنها تنحني فوق شيء ما . كان واياكي يرقبها ، تتملكه الرغبة في احتوائها . تحرك قليلاً . فأصبح

قادراً على رؤيتها بوضوح . كانت تنحني بوضع من يصلي . وكان مفتوناً . ثمة نوع من نور مقدس بدا يشع من جسدها . سيظل المكان مقدساً بالنسبة له إلى الابد . على مسافة ياردات قليلة كان المكان الذي جلس فيه يوم ختانه قبل فترة طويلة . انه المكان الذي اراق فيه دماً ، دماً أحمر ، كأن المكان بحاجة لأن يستعطف ارواحاً غاضبة. عندما أدرك أنها تصلي تقدم نحوها . وهو يرقبها انتابه احساس مخيف اذ تصور نفسيهما واقفين معاً على مذبح مهيئين كقربان . انه لشيء غريب .

مناخ كئيب بدا كأنه يغطي المنطقة كلها . اراد أن يبتعد بسرعة دون ان يراها . كلا . ليس الآن . كل ماأراده هو ان يهرب من ذلك المناخ . انه لايستطيع مواجهته . ثمة حضور مقتدر يكمن خلفه . الآن يحس بها خلفه . في الجانب الآخر . تحرك كأنه يريد الهرب دون أن تراه ، لكن صريرَ غصنٍ مكسور فضحه . رفعت رأسها فشاهدته . توقف . نظر إليها . انحنت . ثم رفعت رأسها فالتقت عيونهما ، ولم يتبادلا كلمة واحدة . كانت خائفة من الاهتياج الكثيف الذي تملكها . وبدا واياكي كما لو انه يتهيأ لأن يذهب ثانية خائفاً منها هذه المرة . كأن البريق الحاد في عينيها كان سيحطمه . اراد أن يزيح عن نفسه تلك السطوة التي تمارس عليه فوق مذبح القربان . غير ان انفعالها كان يتنامى ليصبح نقطة فاصلة . حدثته مجبرة نفسها على الهدوء . ثمة نغمة جريئة ، متحدية يمكن ادراكها في صوتها ، تلك النغمة رآها واياكي كما لو كانت صرخة :

— لاتهرب يااستاذ .

انتشرت في جسده هزة مبهجة فملأته برغبة ساخنة . لقد نادته

بكلمة « استاذ » فعلاً . ذلك اللقب الذي لايناديه به أي من اتباع جوشوا . أكانت تلك ضحكة ساخرة في صوتها ؟ انه لايعرف ، وانتظرها بنفاد صبر .

ـ الى أين ذاهب ؟ ـ سألت وهي تجتاز النهر . اضطرب . انتزع السؤالُ الصدقَ منه . لقد اراد أن يقوم بجولة قصيرة ليجد له مكاناً يستطيع منه مراقبة الاجتماع على مبعدة ، أملاً برؤيتها هناك .

ـ أتمشى فقط . اني أحب النهر والدغل والاشجار .

ـ أنا ذاهبة إلى الاجتماع !

ـ اعتقدت انك هناك ، انها لمفاجأة ان اراك هنا .

ـ أردت فقط أن أعبر من هنا .

صمتت . ثم ضحكت بتوتر قليل . وقالت :

ـ كما ترى اني احب النهر والدغل والاشجار ايضاً ، انه مكاني المفضل .

ـ أتأتين إلى هنا دائماً ؟

ـ ليس دائماً ، احياناً .

كان هادئاً . صمت آخر باعد بينهما . وكان جسده يستعر .

ـ اختي انتقلت إلى عالم النساء هناك . ـ قالت بحزم ، فأشعرته بالذنب .

ـ مازلت تذكرينها .

ـ كيف أنساها ؟ اني احبها .

ـ هل انتما الاثنتان الوحيدتان في العائلة ؟

– نعم . لكني وحيدة الآن .

– انا وحيد ايضاً في عائلتي . كل أخواتي تزوجن . انما اصغرهن والتي احبها كثيراً ماتت منذ زمن بعيد ، وقتها كنت صبياً .

أحست نيامبورا بارتياح لتبادل الثقة بينهما . ولم يعرف ماذا يقول بعد ذلك .

– سوف تتأخرين عن الاجتماع .

ولم تتكلم . ثم بهدوء ، وكما لو انها تكلم نفسها قالت :

– كانت شجاعة ، شجاعة جداً ، هل تذكرها ؟

– نعم ، دائماً .

– وكلماتها الأخيرة ؟

– أجل . . . . . .

وعادت به ذاكرته إلى المشهد الذي حدث منذ سنوات قليلة ، يوم حملوا موثوني إلى مستشفى سيريانا . فتذكر جسدها الضعيف ، الهش ، وعينيها اللامعتين السوداوين ، ورسالتها الأخيرة :

« قل لنيامبورا اني أرى يسوع » . الآن بمقدوره ان يراها ثانية بوضوح . وتذكر ألمها . كان يشعر دائماً ان موثوني وجدت شيئاً ما ، شيئاً ما ملأ روحها وجعلها قادرة على تحمل كل شيء . لقد حاولت ان تجد خلاصاً لنفسها ، ارضاً أكثر ثباتاً لتقف عليها . أما هو ، اين يقف ؟ . وعاوده الشوق معبراً عن نفسه في موجات من الرغبة بطيئة ، لكنها عالية .

ثبّت بصره على نيامبورا . وللحظة اعتقد انه يستطيع ان يرى

موثوني في الليلة التي التقيا خلالها في الظلام ، عشية الختان والانتقال إلى عالمي الرجال والنساء . تقدم خطوة نحو نيامبورا ، ووقف قريباً منها . أخذ يدها اليمنى في يده ، وهتف على الفور :

— نيامبورا اني احبك .

في الواقع ، لم يكن كلامه هتافاً ، كان همساً . لمحت نيامبورا الضوء في عينيه ، وشعرت بالخوف لثانية واحدة . لم تصدق أذنيها . شيء جميل ان يحبها . ودّت ان ترمي نفسها بين ذراعيه لكنها ماتزال خائفة . ثم أحست بأسى مؤلم تسلل إلى قلبها من مكان ما . فسقطت دمعة فوق خدها الأيسر . لم تحاول ان تحبسها ، وسقطت الثانية فوق خدها الأيمن . ضغط على يدها ، فضغطت هي على يده ، لدرجة شعر معها انه سيموت . وفي لحظة وَلَهٍ غامرة أخذها بين ذراعيه،وضمها إلى صدره، وكانت دموعها تتساقط فوق كتفه . لم ترفض ، بل تركت نفسها بين يديه ، بين يدي الرجل الوحيد الذي بوسعه انقاذها من تعاستها . ولم يتكلم . كانا شخصاً واحداً . واعتقد انه وجد ضالته فهمس لها :

— هل تتزوجينني ؟

استراحت على صدره العريض . ارادت ان تقول « نعم » . واشتاقت لقول هذه الكلمة . انها لاتكلفها شيئاً . تكلفها همسة فقط . وافاقت ببطء . حررّت نفسها منه . وكفت عن البكاء .

— قولي . قولي . — تضرع إليها بأمل وخوف . وحلّ صمت آخر بينهما

— لا . — قالت بنبرةٍ خافتة .

أجهدت نفسها كثيراً كي تهمس بتلك الكلمة . مع انها كانت

تدرك انه يجب عليها قولها . اذ أن زواجها منه سيكون مستحيلاً اذا لم تتمرد . وهي لاتريد ان تتمرد مثل أختها . شعر واياكي بالألم :

ـ لماذا ؟ ألا تحبينني ؟

ـ احبك ، احبك . ـ قالت في نفسها ـ لكن الا ترى اننا لانستطيع ان نتزوج . ـ وقالت بصوت عال ـ لن يسمح أبي . ولا استطيع أن أتمرد عليه. انه يعرف اننا التقينا من قبل، من خلال الاشاعات.

كان ينظر إلى ناحية اخرى ، فلم ير الدموع التي تدفقت من عينيها . اذا استمرت كذلك فسوف تغص بالنشيج . لذا من الافضل لهما ان ينفصلا . لكنها تريده . وتركه شيء مؤلم . وتحركت بسرعة قبل فوات الأوان . تركته واقفاً في الوضع ذاته ، محدقاً في المكان ذاته . تألمت كثيراً ، فوقفت مترددة ، لكنها ادركت انه يجب عليها ان تذهب . « نيامبورا ، نيامبورا . » آه . . . لقد ذهبت . ماذا أراد أن يقول لها ؟ . عاد إلى البيت لايرى شيئاً ، ولايحس بشيء . كان يمشي فقط .

تلك اللحظة خرج كاماو من مخبئه . كانت عيناه وروحه تستعر بالحقد . لقد عانى من ذلك فبرز غضبه المتكدس ضد واياكي . انه لم ينس ابداً تلك الحادثة التي أهانه فيها واياكي في السهول . انه لن ينسى ذلك الجرح . كان يعرف تماماً انه يكره واياكي المشهور الآن كمعلم . خاصة وان البعض يقول انه سوف ينقذ التلال . حسناً ، فليكن معلمهم . فليكن منقذهم . انه يرفضه ، هذا الرجل الذي أهان والده ، وبعد كل ذلك هل يتنحى جانباً وينظر إليه وهو يهزمه في الحب ؟ كلا . كاماو يحب نيامبورا . كان ينتظرها دائماً . ودائماً يحوّم حولها في ماكويو آملاً

أن يأتي اليوم الذي يعلن فيه لها عن حبه . لكن فرصة مناسبة لم تسنح له كي يفتح لها قلبه . ذلك اليوم سنحت فرصة عظيمة فعزم على استغلالها . كان يريد ان يحدثها عن نفسه . وكان متأكداً من موافقتها على الذهاب معه إلى نايروبي . لكن الأحمق واياكي جاء . فانتظره كاماو حتى يذهب غير أنه أصر على البقاء . فرآهما كاماو متعانقين. وبألم شديد تأكدت له كل مخاوفه أمام عينيه . واياكي سيبقى غريمه حتى الموت .



الفصل العشرون

مضى واياكي من تل إلى آخر ليقابل الرجال الاكبر سناً . وهم جاءوا إليه أيضاً وقابلوه ، وشعروا بالارتياح الذي مبعثه بريق عينيه . ثمة هوى كان واياكي يعيش من أجله . يقوده التعليم ، إلهه ، يريه النور ، ويجعله قادراً على التغلب على المصاعب والاحباطات الشخصية . فساقه ذلك عبر التلال والوديان ، عبر الغابات وظلام الليل . ولم يتوقف ليفكر في النهاية التي سيؤدي إليها كل ذلك . ولم يفكر في ما اذا كان الوعي والحماس الجديدان اللذان أسهم في خلقهما سيتنزفهما التعليم . اما اذا سأله اي شخص فجأة سؤالاً في ذلك الاتجاه فسوف يهتف عالياً : « الوحدة وبناء المزيد من المدارس » .

لكنه كان يواجه مهمة الحصول على عدد اكبر من المعلمين للمدارس التي انشئت حديثاً . شيء ما كان يجب ان يحدث . وسيريانا ماتزال المكان الوحيد الذي بمقدوره اعداد رجال على قدر من الثقافة الضرورية ليقوموا بمهمة التعليم بين التلال . لذا قام ذات يوم برحلة مفاجئة إلى تل قرب سيريانا ، حيث التقى بعض الشباب الذين في السنة الدراسية الأخيرة في البعثة التبشيرية . حدثهم ، وناشدهم ، فوافقوا على مقترحاته ، لكنهم طلبوا منه العودة قبل ليلة عيد الميلاد لتثبيت الاجراءات اللازمة .

في ريف غيكويو كان مجلس القرية يحقق المزيد من السلطة على

الناس . أما النداء الذي انتشرت على اثره المدارس الجديدة فقد أخذ يرتفع ثانية . حافظوا على نقاء القبيلة . وكان الناس يصغون لأنهم لايريدون الموت لقبيلتهم . كان مجلس القرية يريد القتال من أجل الأرض التي يستولي عليها المستوطنون والمبشرون والحكومة . وراح كابوني واتباعه ينتقلون من تل إلى آخر ، يحثون الناس على اداء يمين الولاء من أجل نقاء القبيلة . اولئك الناس الذين علموا ان معلمهم قد أدى اليمين ، وانه كان أحد قادة مجلس القرية قبل استقالته على الأقل .

لاأحد يستطيع ان يحنث بهذا اليمين . ولم يحدث أن أدى أحد هذا اليمين وخان القبيلة .

استمرت المنافسة القديمة ، واتسعت لتشمل تلالاً أخرى . وظل ماكويو مركز جوشوا . بينما ظل كامينو مركز القبيلة . والمعلم جاء من هنا ، لكنه لايحب ان يحسب على أي من الطرفين . انه يسعى للصلح . ولكن منذ الاجتماعين الأخيرين مضت الامور من سيء إلى أسوأ . وبدت كل مجموعة أكثر غطرسة واكبر ثقة بنفسها مما كانت عليه سابقاً . وأخذ جوشوا يعظ الناس بنشاط أشد من السابق . وراح أتباعه يرتّلون أناشيد اللعنة والموت للوثنيين بصرامة وتحد . وصُنِّف جوشوا على انه عدو للقبيلة ، مع سيريانا ، مع المستوطنين البيض . تلك الأيام قيل ان مبشري سيريانا قد أرسلوا إلى ريف غيكويو لتهيئة الطريق أمام المستوطنين . وهاهم البيض يتدفقون داخل البلاد باعداد كبيرة جداً . حتى أن التجار الهنود بدأوا يتوافدون ويباشرون اعمالاً تجارية ناجحة .

كان شعور واياكي المفاجيء بالذنب ، والذي بدأ حين أخفق في الحديث عن الصلح ، يتنامى بازدياد . لقد ضيّع الفرصة حين كان

بمقدوره أن يعلن موقفه بوضوح . الحوادث المختلطة ، والقلق و كابوني كلها أمور جعلته يفقد تلك اللحظة يوم كان الناس من مختلف التلال تحت سيطرته . هل ستأتي ثانية فرصة كهذه ؟ سينتظرها ، سينتظر لحظة أخرى ، لحظة يتحدث فيها عن الصلح ، عن التسامح ، والوحدة . عندها يكون قد انجز مهمته ، عندها تكون رسالته التنويرية قد تحققت من خلال التعليم . لابأس . ففي اوائل السنة القادمة سيكون هناك اجتماع آخر لآباء الطلاب ، وسيقول كلمته .

واستمر يعمل بحماس يوماً بعد يوم . غير ان اللحظات التي يلوم فيها نفسه كانت تأتيه بالحاح ، وبقوة أكبر . ومع ذلك يشعر بالبهجة حين يستوقفه شيخ او طفل ويصافحه ، وابتسامة واثقة تعلو وجهه . كان سعيداً لتركه مجلس القرية ، لأنه لايستطيع انجاز فعاليات المجلس اضافة إلى نشاطات لجنة المدارس الجديدة .

كثيراً ماافكر بنيامبورا ، وشعر بالألم لرفضها له . وغالباً ماحاول طرد المسألة كلها نهائياً من ذهنه . انه يستطيع ان ينفّذ هذا فقط عبر الانغمار في العمل .

بعد انتهاء دوام المدرسة جاء كنوثيا بسيماء من يحمل سراً .

— أود ان أتكلم معك .

— لكنك لم تحذرني سابقاً أبداً قبل أن تطلب التحدث إلي .

— رجاءً لاتمزح . — قال كنوثيا متوسلاً — اعتقد ان الأمر جدي .

— ماذا ؟

— ماسمعته ، هل هو صحيح ؟

— انت لم تخبرني أي شيء عنه . انا لاأعرف .

كان بمقدور واياكي أن يرى شيئاً ما جدّياً يثقل صدر كنوثيا الذي بدا مرتبكاً .

— انت . . . . — وتوقف . في هذا التوقف أحس واياكي بصمت المدرسة . فالأطفال ذهبوا إلى بيوتهم . وكاماو والمعلم الجديد الذي انضم إلى ماريوشوني قد ذهبا أيضاً .

— اني انتظرك . — قال واياكي .

— يقال أنك اصبحت واحداً من اتباع جوشوا .

— أنا ؟ من يقول هذا ؟

— لاأحد محدد فعلاً . ربما كان نكتة . انت تعرف ، على سبيل المثال ، كم يحب أناسنا الإشاعات . قليل من الناس يتحدث هنا او هناك بالموضوع . حسناً ، انهم يقولون انك ذهبت إلى كنيسة جوشوا عدة مرات . وقد شاهدوك هناك .

— ذهبت مرة واحدة . ثم ما الخطأ في هذا ؟

— ليس هذا فقط . يقال انك ذهبت منذ بضعة أشهر إلى سيريانا ، وتحدثت طويلاً مع الرجال البيض . انت تريد أن تبيع الناس .

ضحك واياكي . انه يدرك حاجته لأن يأخذ الموضوع بجدية . انها مجرد اشاعات . يجب ان تكون تلك المرة التي ذهب فيها لرؤية الشباب قرب سيريانا ليفاتحهم بصدد التعليم في التلال . لذا قال :

— حسناً .

— و . . . .

رفع واياكي رأسه ، ثمة تغير في صوت كنوثيا .

— لنجلس هناك على العشب .

مشيا بصمت . وجلسا فوق بقعة معشبة في مواجهة المدرسة . وسأل كنوثيا حالما جلس :

— أحقاً أنك تنوي الزواج من إبنة جوشوا ؟

فوجىء واياكي ، فوثب . انه لم يلتق بنيامبورا منذ ذلك اليوم . واستعاد رفضها له . فتخدر جسده . انها لسخرية ان يتحدث الناس عن زواجه الممكن من نيامبورا بينما هي ترفضه . كان كنوثيا يتكلم بقلق شديد :

— كن حذراً ياواياكي . انت تعرف ان الناس يتطلعون إليك ، فأنت رمز القبيلة . ولدت ثانية مع كل نقائها . انهم يجلّونك ، يعبدونك . ويبدو أنك لاتعلم شيئاً عن القَسَم الجديد . اذ انك مشغول جداً . انهم ينتزعون القَسَم الجديد باسمك ، باسم المعلم ونقاء القبيلة . تذكر ان كابوني يكرهك ، ولو تمكن لقتلك . انه الوحيد الذي يقوم بكل ذلك . لماذا ؟ لمجلس القرية سلطة ، سلطة ، واسمك فيه يمنحه سلطة أكبر . اسمك سيُحطمك . احترس . . . . .

كان كنوثيا منفعلاً جداً . صوته مليء بالقلق . أرخى واياكي يده فوق كنوثيا ، وقال :

— طيب ، انها لن تتزوجني . واولئك لن يفعلوا شيئاً ضدي .

— هناك شباب انا اعرفهم ، موالين لكابوني قد أقسموا على ان يحافظوا على نقاء القبيلة ، وان يعاقبوا من يخون . . . .

— قلت لك انها لن تتزوجني .

— اذن ، الاشاعة صحيحة .

-- ماذا ؟

-- الاشاعة التي تقول انك ستتزوجها ؟

-- اسمع كنوثيا ، انها لن تقبل بي .

بعد هذا اللقاء باسابيع قايلة ذهب واياكي لزيارة أحد الرجال الاكبر سناً . كان الرجل صديقاً حميماً لكابوني . تحدث عن والد واياكي ، وعن جده . وامتدحهما لشجاعتهما . ثم أنهى كلامه بأنهما ماخانا القبيلة أبداً . عاد واياكي إلى البيت وقلبه يشرق بالفخر ازاء الأثر الذي تركه اجداده . ولكن في الليل خطر له فجأة ان الرجل الاكبر سناً قد لمّح محذّراً . ماالذي جعل واياكي يربط مابين هذا التحذير ومعلومات كنوثيا؟كلما فكر كثيراً بدا له الأمر أكثر وضوحاً .

كان عيد الميلاد يقترب ، وقد ترافق في هذا الفصل من السنة مع حلول الشعائر والطقوس القبائلية . واياكي لايشارك بها كما اعتاد من قبل . اذ اصبح عمله كثيراً جداً للحد الذي لايتمكن من انجازه . فثمة العديد من المعلمين يأتي لرؤيته من جميع انحاء التلال . وشيوخ واطفال يجيئون بمختلف المشكلات ورغم ذلك كله كان يفتقد إلى الصلة مع الناس . تلك التي لاتتحقق الا بالمساهمة معهم في الطقس : لقد أصبح مهووساً بالمدارس ، والهوّة الآخذة في الاتساع والانقسامات .

ثم حدث شيء روّع الجميع ، شيء لم يحدث مثله أبداً من قبل . وهو أن كوخ أحد أتباع جوشوا الجدد قد أضرمت فيه النار. لم يتضرر أحد . لكن النار التهمت كل مابداخله . ولم يفهم وياكي السبب . لكنه أشار إلى صلة الحادث بمجلس القرية . هل صمّم كابوني على تحطيم القبيلة ، وكل من يعارضه ؟ . أحدث ادراكه هزة في جسده ، اذ اعتقد فجأة انه كان يجب ألا يستقيل من مجلس القرية . فسلطة المجلس وتأثيره في كل مكان .



الفصل الحادي والعشرون

حين انتهت الصلاة عادت نيامبورا إلى البيت كي تعد الطعام لوالدها . لكنه جاء مع أناس آخرين ، فلم تتوفر لها فرصة للراحة . وبعد أن قدمت لهم شيئاً ما يأكلونه ، خرجت .

لم تعرف ماذا تفعل او أين تذهب . كل الذي عرفته هو انها تريد أن تكون لوحدها . انها ليست كعادتها منذ أن رفضت طلب واياكي للزواج منها : في البيت حافظت على هدوئها الظاهري ، وانجزت اعمالها الصغيرة كالمعتاد . لكنها أصبحت سريعة الغضب ، وتستاء كثيراً من اوامر والدها . تمنت ان تعيش ثانية تلك اللحظة التي ارتمت فيها بين ذراعي واياكي وهي تشعر بجمال كل شيء. كثيراً ما صلّت وتضرعت كي يأتيها ويحبها وينقذها من تعاستها . هذا ماكان يحدث لها تقريباً . إنه يحبها لكنها لاتستطيع ان تتزوجه . كما ان فكرة كونها الوحيدة التي رفضته كانت تعذبها أكثر من أي شيء آخر . هل أدرك ذلك ؟ وخشيت من أن لايراها ثانية .

لماذا قالت « لا » ؟ كان يمكن أن تكون سعيدة جداً لو قالت « نعم ». لقد أحبته ، وارادته . انه منقذها الوحيد . لكنه حين جاء إليها هربت منه ، اذ من الصعب عليها ان تتمرد على والدها . انه هناك دائماً كثقل

فوق كتفيها . كضمير يريها طريقاً واحداً عليها ان تتبعه . الا أنه طريق لاتود اتباعه . انها تتمنى ان تتمرد مثلما تمردت موثوني . لكنها لاتملك شجاعة موثوني . هكذا استمر الصراع في اعماقها . احياناً كانت تود أن تذهب وتفتش عنه ، وتطلب منه أن يأخذها ثانية . سوف تهمس له : « واياكي ، أحبك » . واحياناً أخرى كانت تقاتل ضد مشاعرها إزاءه ، وتشعر بالفخر لعدم تخليها عن أبيها .

حتى ذلك الوقت لم تكن متأكدة من أن جوشوا قد سمع عن لقائها به . ولم تفهم أبداً سبب كذبها على واياكي . « انه يعرف اننا التقينا » . ومع ذلك كانت تقنع نفسها بأن ذلك لم يكن كذباً . اذ كان لديها شعور دائم بأن جوشوا يعرف مايحدث لها . ربما بسبب الطريقة التي ينظر بها إليها ، او الطريقة التي يحرف فيها عظته ويذكرها ويذكر الآخرين بالضرورة القصوى للابتعاد عن الوثنيين . وقبل أيام قليلة من لقائها الأول بواياكي حدثتها أمها بشكل شخصي : « واياكي شاب طيب ، لكن الناس يتكلمون كما تعرفين . ونحن لانريد مزيداً من المشاكل في هذا البيت ، لاأستطيع ان اتحمل . كلا . بعد موثوني . . . . » . تلك اللحظة نادتهما أمرأة فلم تتوفر لنيامبورا فرصة سماع كل ماأرادت أمها أن تقوله . لكنها أدركت ان والدتها كانت تود واياكي ، لأن ميريامو لم تنس أبداً انه هو الذي ابدى اهتماماً كبيراً اثناء محنة موثوني ، انه هو الذي أخذها إلى المستشفى . فكانت تصلي للمسيح كل ليلة كي يجد واياكي الخلاص وينضم إليهم.

ذهبت نيامبورا إلى مكانها المعتاد عند نهر هونيا . وعندما اقتربت تسارع نبض قلبها . هناك . هناك في الغابة وقفت مرة وأرتمت بين

ذراعيه . هناك سمعت من شفتيه انه يحبها . وفكرت انه ربما مايزال واقفاً هناك ينتظرها . عبرت النهر ودخلت في الدغل وهي تصلي وتأمل وتبتهل كي تعيش معه إلى الأبد !

لكنها تعرف انه لن يكون هناك . ثم انها لم تذهب إلى المكان منذ ان افترقا . ومع ذلك تألمت لعدم وجوده . وإتهمه قلبُها بالتخلي . لكن من المؤكد انه سيأتي ويراها ، يجب ان يأتي ثانية . إختلطت تعاستها باليأس، واحست انها قادرة على ان تكرهه . شيء سخيف بالطبع . وفي اعماقها لامت نفسها على رفضها له .

عادت إلى الضفة المقابلة ، وجلست في مكانها المفضل . على يسارها الارض المنبسطة التي أريقت فوقها دماء الذين ختنوا . موثوني أيضاً كانت قد جاءت إلى هنا في صباح قربانها . لم تشعر نيامبورا بالاطمئنان كما في كل مرة ، ولم يعد النهر يُسكِّن آلامها .

عندما حلّ المساء وبدأت الطيور تغادر المكان رجعت إلى البيت . كان والدها جوشوا واقفاً في الباب. لم تكن تحب طريقته في النظر إليها. ثمة شيء ما مقلق . تركها تدخل دون ان يقول كلمة . ميريامو التي كانت في الداخل لم تكلمها أيضاً . وتبعها جوشوا :

— أين كنت ؟ — كان صوته متوعداً . وكانت تخاف من والدها .

— عند النهر .

— من معك ؟

— كنت وحدي . — كانت ترتجف لقد ذهبت إلى النهر على أمل أن يأتي منقذها في غيمة لنجدتها . لكن واياكي لم يأت . كانت طاعتها لوالدها سبباً في فقدانها له .

ـ لاأحد معك ؟

ـ نعم .

ـ انت تكذبين . تكذبين .

ـ كنتُ وحدي ياأبي . ـ أصرّت :

ـ لاتتصوري اني أعمى . أنا لست ذلك الكهل ، ولاتوهمي نفسك بأني لم أسمع شيئاً بعد . اذا سمعت أنك شوهدت مع ذلك الشيطان ثانية فاعرفي إنك لن تعيشي في هذا البيت :

ـ كنت وحدي . ـ هتفت بغضب ، وكادت تبكي .

ـ اقولها ثانية اذا رآك أحد معه ثانية . . . . . ألم يسببوا لهذا البيت مايكفي من الأذى ؟ ثم ألا تذكرين كيف احرقوا كوخ رجل من رجال الرب ؟

ـ لكن . . ـ

وارتفعت حدة الوعيد في صوته :

ـ دعيني أراك معه . دعيني اراك معه ثانية .

لم تقل أي شيء آخر . هذه هي مكافأتها على قول الصدق وطاعتها له . بسبب هذه الطاعة ايضاً فقدت الرجل الوحيد الذي أحبته ومعه خلاصها . تلك الليلة لم تتمكن من النوم . ظلت تبكي طوال الليل وتصلي متوسلة إلى الرب أن يقضي عليها .



الفصل الثاني والعشرون

أخذوا يمتدحونه في كل تل . لقد جلب لهم معلمين ، وسوف يشرب اطفالهم التعليم الذي اشتاقوا إليه من هذه الآبار الجديدة . فما معنى المدارس بدون معلمين ؟ ذلك ما كان يقلق كل شخص منذ الاجتماع الحاشد الأخير . كانوا واثقين من ان واياكي سيفعل شيئاً ، لكن حتى ذلك الحين مازالت ثمة شكوك لدى بعضهم . فالمعلمون لايمكن الحصول عليهم إلا من بين مخالب سيريانا . وقد فعل واياكي ذلك .

أصبح كنوثيا يعبد واياكي ، ولازمه شعور بأنه يستطيع أن يخدم في ظله إلى الأبد . واياكي هذا الرجل المتميز ، هكذا وصفه كنوثيا للرجال الاكبر سناً الذين التقى بهم . فوافقوه وهزّوا رؤوسهم بمعرفة سرّية . انه ابن تشيغي . تهامسوا فيما بينهم . انهم يدركون ان تشيغي كان رجلاً عظيماً . حتى في شبابه قال اشياء غريبة لم يستوعبها الآخرون تماماً . ظل كنوثيا محتفظاً بآرائه السياسية المتحمسة . كان واحداً من الناس الذين يؤمنون بـ « العمل الفوري » ، وهذا مايفسر اعجابه بكابوني ومجالسه . فهم يؤمنون ايضاً بالعمل ضد الرجل الابيض . لكن حلم المعلم العظيم عن التعليم العالي للناس قد استحوذ عليه . كيف يمكنه مقاومة قوة ذلك الحلم الممتد امامه في صوت واياكي البطيء المؤثر ؟ ليس في صوته فقط ، بل في عينيه . كانت عيناه تحملان ذلك الحلم .

وكنوثيا يدرك تماماً ان واياكي يؤمن بهذه الرسالة . خشي عليه لأنه كان قادراً على رؤية اشياء بدت خفيّة بالنسبة لواياكي . انه يستطيع ان يدرك على سبيل المثال ، ان كراهية كابوني لواياكي قد تحولت إلى رسالة ، رسالة لها قوة القناعة السياسية التي كانت جزءاً مكملاً لتصور كابوني عن حرية التلال .

حين عاد واياكي من رحلته الثانية إلى سيريانا ، واعلن الانباء السارة إلى لجنة المدارس داخل سلسلة التلال ، شعر كنوثيا بدفء الفخر والابتهاج في قلبه . وشعر أيضاً انه صغير ازاء واياكي وهو يمشي إلى جانبه .

— هل سيأتون كلهم من كيامبو ؟

— لا . بعضهم من كابيتي ، ومورانغا ، ونايروبي . انهم يعتزمون مساعدتنا ، فهم مستاءون من سيريانا أيضاً ، ويريدون الخدمة في مدارس غيكويو المستقلة .

مشى كنوثيا وواياكي بصمت على امتداد نهر هونيا . كان واياكي مغموراً بالحرارة والحماسة اللتين استقبل بهما الرجال الاكبر سناً نتائج رحلته . نظر كنوثيا إلى وجه واياكي المقطب ، وقال :

— عندما يأتون يجب ان تقدمهم في اجتماع الآباء في بداية السنة .

— نعم ، نعم ، سوف نقدمهم .

ثم التفت واياكي إلى كنوثيا فجأة :

— يجب ان نطوّر التلال ، يجب ان نستثمر هذه الحماسة ، يجب ان نبني مدارس . وكلية ، كلية كبيرة عظيمة .

لم يتأثر كنوثيا كثيراً بكلمات واياكي بقدر ماتأثر بالطريقة التي كان يلقي بها تلك الكلمات المليئة بالحماسة والقناعة . إلا انه تساءل عما إذا كان واياكي يدري بأن الناس يتوقون إلى العمل الفوري ، وعما اذا كان الحماس والادراك الجديدان ينطويان على شيء أكثر من مجرد الرغبة المحض في التعليم . فالناس يريدون ان يتقدموا إلى أمام ، لكنهم لايتمكنون من ذلك مادامت ارضهم مغتصبة ، مادام اطفالهم مجبرين على العمل في التلال المستعمرة ، مادام رجالهم ونساؤهم مجبرين على دفع ضريبة الكوخ . لم يرد ان يخبر واياكي بهذا الآن ، لكنه سوف يخبره به في يوم ما . لأنه كان مقتنعاً بأن واياكي هو أفضل رجل يمكنه قيادة الناس ليس فقط إلى النور الجديد من خلال التعليم ، انما إلى فرص جديدة وإلى مواقع جديدة للتعبير عن الذات من خلال الاستقلال السياسي . انه الرجل الأفضل لقيادة مجلس القرية ، اذ أن لروحه تأثيراً في السلطة التي يمارسها المجلس وكابوني على الناس ، مايزال حتى الآن . هل كان واياكي يدرك هذا؟ عندما لحظ كنوثيا الحماسة في عيني المعلم تساءل عما اذا كان حلمه بالنور الجديد لم يحجب نظره عن رؤية اشياء أخرى . لكنه كان يؤمن به ويود مشاركته في هذا الحلم وبمهمة تحقيقه .

غير ان كنوثيا لم يكن يعرف مدى احلام وتصورات واياكي . كيف يمكنه ان يعرف مالم يدخل مناطق القلب ، حيث تتنازع الشكوك والمخاوف في الظلام ، حيث تفقد فجأة مشهد آمالك ونجاحاتك ، حيث تهتز حتى الجذور عندما تستيقظ في الليل ، او حتى عندما تمشي في ممرات الريف ؟

بعد يومين ، وعندما استلقى واياكي في فراشه ، أحس بالإنهاك

في الجسد والروح . أحس كأن شيئاً ما شريراً يكمن خلفه ، على مسافة أقدام قليلة ، متعقباً طريق نجاحه ، مهيئاً للانقضاض عليه وتحويله إلى لاشيء . لم يكن هذا خوفاً او حتى يأس ، انه مجرد شعور حوّم حوله ، وبعث القلق فيه . ومع ذلك تمسك بحلمه تاركاً نوره يضيء الطريق أمامه .

منذ احتراق الكوخ ، قبل أيام من مغادرته إلى سيريانا ، فكرّ واياكي مليّاً بناسه ، وتطلع إلى أمام ، إلى بداية السنة الجديدة ، حيث سيجتمع ثانية آباء الطلاب ، عندها سيقول لهم أن يتوحدوا جميعاً . . ولكن يتوحدون من أجل ماذا ؟

بالنسبة له كانت ثقافة الرجل الابيض اداة تنوير وتقدم اذا ما استخدمت جيداً . انه مايزال يتذكر كلمات والده التي قالها منذ وقت بعيد ، يوم وقفا على التل ، وشاهدا الريف كله يمتد امام اعينهما : « تعلم كل حكمة وكل اسرار الرجل الابيض ، ولا تتبع خطاياه » . أكانت هذه رسالته بين التلال منذ ذلك اليوم ؟ سوف يخبر الناس . والحق انه أخبرهم . الاطفال يجب أن يتعلموا . « سوف ينهض رجل وينقذ الناس في ساعة حاجتهم » .

أهو ذلك المنقذ؟ أهو الشخص الموعود؟ أو هل كان تشيغي يهلوس؟ كيف سينقذهم ؟ لقد وضع تشيغي عبئاً على كتفيه ، عبئاً لايطاق . فالمنقذ هو الذي يقوم بعمل ما كبير ، بشيء ما ذي سطوة تؤهله لتغيير حياة الناس . المنقذ من يقوم بعمل يبعث الارتجاف . شيء يحدث فجأة في ليلة ما ولايستطيع أحد مقاومة سطوته . ماالذي فعله هو ؟

لكنه الآن ينتظر فرصة ليهتف بما يجول في خاطره . سيقول للناس

« اتحدوا » في بداية السنة القادمة قريباً . وللحظة وجد نفسه يحلم . حلم حدث في لحظة . ومضى في ذهنه وبدا كما لو أنه يضيء الزوايا المعتمة من روحه . حلم عن اناس يثقون ببعضهم . يجلسون متجاورين ، ينشدون اغنيات الحب المنسجمة مع موسيقى تنبعث من الطيور ، وقاوبهم ترقص للايقاع الذي تحدثه ارتعاشات النهر .الأطفال يلعبون هناك، يقفزون من صخرة إلى صخرة . يطرطشون الماء فيصل آباءهم وامهاتهم الجالسين في الظل ، قريباً منهم ، وهم يتحدثون ويرقبون . الطيور تغرد وهي تنتقل من شجرة إلى شجرة . بينما هناك بعيداً ، وسط الغابة تتحد حيوانات الارض المتوحشة في حلقة مستديرة . ووسط ذلك كله وقفت نيامبورا . جاء إليها الاطفال . تحدثت مع الرجال الاكبر سناً . وبدت الطيور كما لو انها تصغي . حتى الحيوانات المتوحشة كفت عن الحركة ووقفت ساكنة . وارتفعت اغنية أثارت قلوب الجميع . أما عيون نيامبورا السود فقد عكست تطلعهم إلى حياة مستقبلية جديدة .

مدّ واياكي يديه . اراد أن يلمس جسدها المرتعش بينما هي تقود الحشد في تلك الاغنية . ورأى ايدي الناس الآخرين ، وبينهم جوشوا ، تمتد إليها . وللحظة توقف جامداً مفتوناً بالمشهد . ثم تملكه الرعب . كانوا يسحبونها فتتقطع اجزاءاً كما لو كانت قرباناً لإله النهر الذي مايزال يتدفق بالحياة ، بينما هم يؤدون هذا الطقس انتهاكاً لها . كان هو يشاركهم أيضاً . يسحبها نحوه،ويمزقها وهي لاتصرخ . كانت خرساء . ثم رآها موثوني وهي تُرمى في النهر وتصيح : «أنا امرأة الآن» . ويحملها النهر في الظلام الذي لايستطيع أحد أن يسبر غوره . أطلق قلب واياكي صرخة . وأدرك أنها لم تعد موجودة ، لقد أختفت تماماً .

وانصرف الآخرون صامتين . لايتكلمون مع بعضهم . كانوا يشعرون بالذنب عندما مرّوا قربه ، وتجاوزوه ، تفادوا النظر إليه . وبقي وحده لايعرف ماذا ينبغي عليه أن يفعل . أيتبع موثوني أم يتبع الحشد ؟ تلك اللحظة وقفت نيامبورا امامه. ومضة من فرح ازاحت عنه الشعور بالذنب. خطا نحوها ليلمسها فرفضت . اراد أن يعترض وان يذكرها بتلك المرة التي سمحت له فيها أن يأخذها بين ذراعيه . لكنه تذكر انها لم تقبل الزواج منه . لماذا رفضت؟ ألأنها لاترغب في التمرد على والدها؟ أجل . تلك هي الكلمة : التمرد . وهكذا فقدها إلى الأبد بسبب طاعتها . لكن شوقه سيستمر ويستمر حتى الموت . الموت نهاية كل شيء . كان على وشك ان يفتح فمه ويقول لها أن جوشوا كان يقود الحشد الذي قطعّها أجزاءً ، فتذكر انه هو نفسه قد أختار الوقوف إلى جانب الحشد عندما قبل المطالب الشعائرية للقبيلة فأراق دمها . أثقله الذنب،وافزعه الظلام . أراد أن يصرخ برعب في نفسه. لقد أخفق في أن يدعو الناس إلى الاتحاد. لابأس ، مرة أخرى ، مرة قادمة . وأفاق من نومه وهو يردد لاهثاً : مرة قادمة .

نفض عن نفسه رعب الحلم . كان متأكداً من انه لم ينم . تحسس وجهه فوجده مبللاً بالعرق. نظر حول الكوخ . لم يكن الوقت متأخراً. انه متعب فقط وبحاجة إلى راحة . وادرك انه لم يعد بمقدوره أن ينام . ولكن عليه أن يتخلص من أثر ذلك الحلم الذي ألزمه السرير . تمنى لو يستطيع أن يسهم بنشاط في الاحتفالات الشعائرية للقبيلة.فذلك سوف يمنحه ارتياحاً كبيراً . ويبعث فيه احساساً يشعره بأنه مايزال واحداً من افراد القبيلة . والرحلات! . الختان يقترب . لم يتبق له أكثر من اسبوع . انه هذا العام يتزامن مع يوم الميلاد . أهو تحد لجوشوا ؟ كان الغناء والرقص

في حركة ناشطة . ثمة معنى جديد للاغاني . وغدت الفتيات غير المختونات مواضيع لهجوم عنيف. اذ يرمى عليهن اي شيء قذر ،نجس . فهن اشياء ليست نقية في القبيلة . وسوف يجلبن إلى التلال غضب ارواح الاجداد . لكن اليوم الذي سيختَن فيه بالقوة سيأتي قريباً لتخليص الارض من النجاسات . أخذ جوشوا واتباعه يشهرون تحديهم . وراحوا ينشدون للمسيح وقوته المخلِّصة ، يغنون للمسيح الطفل ، المولود في بيت لحم ، المقمّط ، المضجع في مِذْوَد .

النوم المبكر شيء سيء . انه لايستطيع النوم . نهض من السرير ، وذهب إلى كوخ امه . ودّ أن يخرج إلى القرية ويتحدث إلى الرجال الأكبر سناً ، او إلى من هم في سِنّه . وحدّث نفسه انه في الأيام القليلة القادمة سينغمر في حياة التلال . فاذا كان قد فقدَ نيامبورا فانه لم يفقد ايمانه في خدمة الناس .

لم تكن أمه قد آوت إلى فراشها بعد . كانت كهلة جداً ، تجلس قرب الموقد . أحس واياكي ان ضميره يوخزه ، لأنه تركها وحيدة لفترة طويلة . فكر : « سأتزوج قريباً وتصبح لها رفيقة » . ثم استحوذ عليه خوف مفاجىء . فربما لن يتزوج . شعر واياكي كما لو انه يتمنى ان يلقي بنفسه في أحضان أمه المسنة ليرتاح هناك ، كما في ذلك اليوم الذي هدّأته فيه اثناء ولادته الثانية . اضطربت مشاعره . ثم أحس بالهدوء من جديد . ولم يرغب بالبقاء طويلاً ، فنهض ليذهب .

ـــ إلى أين ذاهب ياابني ؟ ـــ سألت دون ان ترفع عينيها .

ـــ خارج البيت ياأمي .

نظرت في عينيه الغريبتين اللتين نطقتا باهتياج داخلي .

ـــ وإياكي .

واستدار بحدة ، وبخوف ، حدّقت ملياً في عينيه ، وكان ارتجاف غريب في صوتها .

ــ أحقاً ستتزوج إبنة جوشوا ؟

كانت الاشاعات تنتشر كنار في هشيم . وازعجه هذا الكلام عن زواجه من نيامبورا . ألم ترفضه؟ انها مطيعة لوالدها . وتساءل عما يجب قوله لأمه . أيخبرها بحبه لنيامبورا ؟ وفكر بها . لقد خانته . لو انها وافقت ! لو ان املاً فقط ! لكان في وضع يواجه فيه أيّ تحدٍ ، لعرف ماذا يقول حين يواجهه شخص ما بسؤال كهذا . وأحس بكراهية نحوها . لقد سلكت طريق الطاعة . هو أيضاً سيسلك طريق الطاعة . ولاينفصل عن القبيلة . لقد حذره والده من افساد القبيلة بعادات الرجل الأبيض ، حذره من ألا يخون القبيلة . أليس الارتباط بنيامبورا خيانة ؟ لن يقف إلى جانبها ، ولن يشاركها ، ولن يقلق أمه بالشرح ، لذا قال كلمة واحدة « لا » .

وعلى الفور كره نفسه . كان يجب ان يخبر أمه بكل شيء ، ان يحدثها بتوقه السري ، بحبه العارم لنيامبورا . فهي أم، ومن المؤكد انها تعرف العلاج . ولكن حين فتح فمه رفضت الكلمات ان تتشكل ، ولم يبق سوى اشراق في عينيه .

قالت أمه بصوتها الواهن :

ــ انت تعرف ماذا يعني الزواج منها . يجب ألا تفعل ذلك ، يجب أن تخاف من صوت مجلس القرية، انه صوت الناس. وحين يتجه ضدك صوت الناس فتلك أكبر لعنة تلحق بك في حياتك .

أدرك ان لاجدوى من الشرح ، فهي لن تفهمه ، اذ أن علاقة كهذه مع فتاة ليست مختونة تعني خيانة في نظرها . وسمعا طرقاً على الباب ، ودخل كاماو .

ـ هل انتما بخير ؟

ـ بخير . ـ أجاب واياكي مسروراً للمقاطعة التي أحدثها مجيئه .

ـ الرجال الاكبر سناً ومجلس القرية يودّون رؤيتك !

منذ استقالته لم يدع واياكي للمثول امام مجلس القرية . نظر إلى أمه التي بدت عيناها تتوسلان ، وتنطقان صرامة بـ « لاتذهب » . وللحظة فكر بصحتها السيئة ، وأحس ان من واجبه البقاء معها ، لكنه رحّب بهذه الفرصة كي يتحدث إلى اعضاء المجلس ويتفاهم معهم . فاذا كانت الرسالة التي كلّفه بها والده في طريقها إلى التحقق عليه ان يتعاون مع أي شخص . وقال :

ـ اعتقد ان أمي مريضة !

ـ من المهم جداً أن تكون هناك . ولو لم يكن الأمر كذلك لما جئت في هذه الساعة . انه لايستغرق سوى وقت قصير .

ـ حسناً . ـ قال متفادياً نظرات أمه .

وخطوا خارج الكوخ في الليل المظلم .



الفصل الثالث والعشرون

ـ لماذا يطلبني مجلس القرية ؟ ـ سأل واياكي ثانية حالما خرجا من الكوخ .

ـ لاأعرف بالضبط . ـ أجاب كاماو بابهام ، بل بنبرة حاسمة لاتشجع على المزيد من الاسئلة . كان ذهن واياكي مشغولاً بأمه . وتذكر الأخيلة المخيفة التي سيطرت عليه عندما كان مستلقياً في سريره . تلفت حوله في الظلام ، وأحس برعب من شيء لامرئي يطارده . قال :

ـ انها ليلة مظلمة جداً .

ـ نعم . مظلمة جداً . ـ ردّد كاماو موافقاً .

بين واياكي وكاماو لايستمر حوار فترة طويلة مالم يكن هناك شخص ثالث . وكنوثيا كان دائماً الشخص الثالث . كان كاماو يرى في واياكي الصقر الذي يخطف منه دائماً قطعة اللحم التي يهم بأكلها . كيف له ان يتقدم او ينجح اذا كان واياكي في طريقه ؟ لقد كرهه ، كراهية تنامت ببطء ، راكمت العنف كلما تقدمت السنوات . ومع ذلك ظل كاماو يشعر بأنه يزداد عجزاً في مواجهة واياكي . ولم يكن بمقدوره أبداً أن يؤهل نفسه لمواجهة كهذه .

كان الكوخ المنعزل الذي يقصدانه يقع بعيداً عن مجموعة أكواخ

كابوني الطينية . في الخارج ثمة ضوء خافت ينبعث من فانوس صغير وضع فوق حجر قرب موقد تتوهج فيه قطع خشبية تمنح الكوخ دفئاً ثقيل الوطأة . كان واياكي يعرف الاشخاص الرابضين عند حافات الظلام ، وقد تحملهم من أجل الرجال الا كبر سناً .

– هل أنتم بخير ؟

– بخير .

لم يردّوا على تحيته بحرارة كما كانوا يفعلون في الماضي . ولم ينادوه بلقب « المعلم » ، ذلك اللقب الذي تحول إلى اسم . جلس على مقعد بدون اذرع وتساءل في نفسه عما سيحدث .

تكلم كابوني اولاً . كان كهلاً جداً ، لكن عينيه ماتزالان تحتفظان بذلك البريق الذي يجعلك تشعر بأنهما الشيء الوحيد الحي فيه . ومع ذلك فهو يمتلك طاقة . بمقدورك ان تكتشفها في صوته . تكلم عن التلال ، عن مراسيم الانتقال إلى عالمي الرجال والنساء التي كانوا يتهيأون لها . تلك العادة القديمة التي على وشك الانهيار بسبب نجاسات معينة في الريف . فالعلة بدأت بسبب جوشوا ، وموت موثوني كان اول إفساد في القبيلة .

– لكن مخاوفنا ليست هذه . القلق يأتينا الآن بسبب من أن نجاسة جوشوا قد مست البعض بيننا . انها الروح المختبئة في جسدك هي التي تقتلك .

هنا نظر إلى واياكي نظرة ذات معنى . خدر شمل المعلم عندما سمع كلام كابوني ، وشلّ حركته : لم يكن يعرف بالضبط إلى اين سينتهي الكلام . لكنه باستطاعته ان يخمّن . تذكر تحذير كنوثيا ،

وتلميحات الرجل المسن ، واسئلة أمه . وفكرّ : « هذا كله وانا مشغول بتعليم اطفالهم . » . شيء ما كالألم الممض بدأ يقضم روحه . عندما تسمع كلام كابوني بتلك النبرة لايمكنك ان تتصور انه كان من اتباع جوشوا يوماً ما .

— أجل . .

كرّر كابوني ببطء . وهدوء غريب يخيم داخل الكوخ ، كالهدوء الذي يسبق عاصفة أو انفجاراً .

— شيء سيء عندما يكون الذي اعتبر نفسه قائداً للناس هو مَنْ تمسه النجاسة . شيء سيء ، لأنه مايزال في وضع يؤهله لتدنيس القريبين منه ، لتدنيس ساق وجذر القبيلة . شخص كهذا خطر علينا ، ويحتاج إلى تطهير .

صمت كابوني ثانية . استدارت عيناه داخل الكوخ ، واستقرت أخيراً على واياكي . لم يكن باستطاعتك ان تكتشف في عينيه ماذا كان هناك حقد أو احتقار . وتكلم بصوت هادىء ، وكلمات محسوبة .

— انت معلمنا ، ولاشك انك تتذكر تلك الفتاة ، مااسمها ؟

— أية فتاة ؟ — أجبر واياكي نفسه على السؤال . — لااعرف شيئاً .

— إبنة جوشوا ، مااسمها ؟ نعم ، موثوني . لم تكن طاهرة ومع ذلك أخذتها إلى المستشفى . لقد مسست امرأة ميتة ، جسداً ميتاً ، هل تطهرتَ ؟ لاأظن . ولكن كان يجب أن تتطهر . وانت لست جاهلاً ، بل تعرف ماذا يعني هذا للقبيلة .

أراد واياكي ان يتكلم ، لكن كابوني أشار له أن يصمت .

ـ لم أكمل كلامي بعد . اذن ، هذا أول شيء فعلته للقبيلة ، وهو ليس صغيراً . ثم أنت لست معلماً ، لست شخصاً نأتمنه على اطفالنا . لأنك منذ ان أصبحت في الموقع الذي انت فيه الآن أخذت تعمل ضد القبيلة عن عمد . كم مرة ذهبت إلى كنيسة جوشوا ؟ كم مرة ؟ . لا . انتظر . لقد ذهبت إلى سيريانا أيضاً . كم مرة ؟ نحن نعرف مرتين . كما انك لم تخبر احداً بذهابك إلى هناك . أتتوقع أن نصدق انك ذهبت للحصول على معلمين ؟ أتتوقع ؟ عليك ان تخبرنا عن كل الاسرار التي بينك وبين جوشوا وسيريانا . هل ستبيعنا إلى الرجل الابيض ؟ أنت تعرف كم قلقون اناسنا ، وكم هم نافدو الصبر . انهم يتطلعون إلى قائد ينقذهم من العبودية . وانت ، انت الذي عليه أن يقودهم . . . . . .

ـ كفى . ـ هتف واياكي غاضباً . ثم استدرك انه يجب ألاّ يصرخ بوجه رجل أكبر سناً منه . ـ لاأفهم ماالذي تتحدث عنه ـ حاول بصعوبة ان يجعل صوته هادئاً . كان يوّد لو ينهض ويصرخ « أنت أحمق ـ أنت أحمق » . لكنه شعر بالقلق . تلّوى في اعماقه من شدة الألم . وظل ملتصقاً في مقعده . تكلم رجل آخر ، انه الرجل الكهل الذي لمّح مرة لواياكي ببضع كلمات قبل اسابيع قليلة .

ـ الخيانة ، الخيانة شيء سيء بالنسبة لرجل في موقع المسؤولية . فلعنات الناس سوف تنصب عليه . انتم الرجال الاكبر سناً تتذكرون تغنيبرا ، المحارب العظيم الذي قاد القبيلة . ماحدث له هو ان إمرأة من قبيلة ماساي أغوته ، فأفشى اسرار قبيلته للعدو . وحطمته لعنة الناس . استطيع أن أذكر وانغيرا . . . . . ـ واضاف عدداً آخر من اسماء الذين لم يخلصوا للقبيلة ، وكانت النهاية ان نزل عليهم عقاب الناس . ـ لذلك

تحذرك اليوم . لذلك يجب أن تخبرنا بالحقيقة . هل انت متزوج من إبنة جوشوا أم لا ؟ لاننا اذا لم نعرف الحقيقة كيف نأتمنك على اسرارنا ؟ كيف نثق انها لن تصل إلى الرجل الأبيض ؟ .

أجل ، هاهي النتيجة أخيراً . كان عليه ان يدرك ذلك . انه الآن أمام محاكمة في تل ماكويو ، ولايشعر بالحاجة لأن يدافع عن نفسه . ومع ذلك تحدث مجبراً نفسه على ان يظل هادئاً :

ــ ايها الرجال الاكبر سناً . لم أكن اعرف ان اتهامات قائمة على الاشاعات كهذه بمقدورها أن تصلني من افواهكم . أنا شاب ، والشباب يجب ان يقودوا كما اعتقد . أما اذا أخطأنا فأنتم آباؤنا وبامكانكم ان تصححوا لنا . لكني ارى شيئاً ما في الإتهامات أكثر من مجرد الرغبة في التصحيح . أخذتُ موثوني إلى المستشفى لأنها كانت مريضة . ولايمكن أن أتركها تموت مادمت في وضع يؤهلني لمساعدتها . وأنا لست الشخص الذي رشحها إلى عالم النساء . فاذا لم تكن طاهرة لماذا لم يعترض الاكبر سناً على ترشيحها ، ثم ، عندما ماتت لم ألمسها أبداً . بالنسبة لسيريانا . اقول لكم فقط اني لم أتفاوض أبداً مع الرجل الابيض. لقد ذهبت إلى هناك في محاولة لجلب المعلمين لمدارسنا التي وافقتم أنتم على بنائها . وليست هناك أية أسرار بيني وبين جوشوا ، ولم أتكلم معه مطلقاً .

ــ ماذا عن ذهابك إلى كنيسته ؟ ــ سأل كابوني .

ــ وماشأن هذا بالناس ؟ ــ سأل واياكي وفي صوته غضب راح يتقدم على هدوئه .

— انه شأن يخص القبيلة والناس ونقاءهم . — أجاب كهل آخر .

كان كابوني ومجلس القريـة يطالبونـه بالوقوف إلى جانب معتقداتهم ، المعتقدات التي تحطم رسالتـه الهادفـة إلى ردم الهوّة بين ماكويو وكامينو ، بين جـوشـوا والآخـرين . المعتقدات التي ستنهي تماماً رسالتـه في التنوير مـن خلال التعليم . كلا . لايمكن ان يكون مهدّداً بالوقوف إلى جانب كابوني . فاذا أصبح تحت سلطة كابوني فان عمله الذي سعى من أجله خلال السنوات القليلة الماضية سينهار نهائياً . يجب ان يجعل موقفه واضحاً . وثانيةً أجبر نفسه على أن يكون هادئاً .

— من شأني أيضاً نقاء القبيلة . من شأني أيضاً نمو وتطور التلال . لكننا لانستطيع ان ننجز ذلك من خلال الكراهية . يجب ان نتوحد ، المسيحيون وغير المسيحيين ، ماكويو وكامينو ، لأن خلاص التلال موجود بين ايدينا .

— لكنك لم تقاتل الرجل الابيض . — قاطعه رجل كبير السن .

— أرضنا تؤخذ منا ببطء ، بينما نجلس نحن وشبابنا نرقب كالنساء. قال آخر .

— ثم نحن وزوجاتنا نجبر على دفع الضرائب . — تابع الرجل الكبير السن .

— المدارس ، المدارس . — ناشدهم واياكي بصوت عطوف — يجب أن نعرف مايعرفه الرجل الأبيض .

— نحتاج إلى قائد .

ـــ قائد سياسي .

ـــ التعليم . ـــ قال واياكي ، وقاطعه كابوني بحزم :

ـــ التعليم لاشيء . نريد اجراءً فورياً . ثم انك لم تجب حتى الآن عن الاسئلة التي تقلقنا . إبنة جوشوا هل انت متزوج منها ؟ .

نهض واياكي ساخطاً جداً . ماشأنهم بنيامبورا ؟ ماشأنهم ؟ أليس باستطاعته ان يفعل مايريد بحياته الخاصة ؟ أليست حياته ملكه ؟ لن يحدثهم عن نيامبورا بشيء .

ـــ لاعلاقة لنيامبورا بكل هذا . اذا كنت أحبها فسأحبها . واذا ليس لديكم شيء آخر فأنا ذاهب .

ـــ تذكر يمين الولاء .

ـــ اليمين !

ـــ الذي أقسمت به .

ـــ إنه لايمنعني من محبة الناس .

ـــ إنه يمنعك من خيانة القبيلة ، من كشف اسرارها ، من عمل أي شيء نجس قد يؤدي إلى خرابنا .

لن يناقش معهم مسألة نيامبورا ، الفتاة التي رفضته . ونظر إلى كابوني . الكراهية هي كل مايستطيع ان يكشفه كل ذلك الضوء الخافت المنبعث من الفانوس . أما الشعاع الذي في عيني كاماو فكان ينطق بانتصار صامت . الآن ، تأكد واياكي من كراهية كاماو له . وانزعج كثيراً في اعماقه لإحساسه بأنه لم يخض معركة ناجحة . ربما أخفق في فهم القبيلة ، ربما لم يعرف إلى أين كان يقودها .

عندما تركهم وخطا خارج الكوخ كانت كلمة «خائن» تلاحقه . وتساءل عما اذا كان فعلاً قد شاهد نتائج الوعي الذي بعثه في التلال . غير ان المرارة والخيبة امتزجتا في داخله ، وقادتاه بعيداً . أحس بالغضب من أي شخص ، من أبيه ، من نيامبورا ، من الرجال الاكبر سناً ، ومن نفسه .

شعر كابوني بالانتصار وهو يواجه الرجال الاكبر سناً :

— ياشيوخ القبيلة ، قلت لكم ولم تصدقوني . انه لم ينكر العلاقة لا مع جوشوا ولامع الرجل الابيض . كيف يمكن ان يستمر كمعلم ؟ كيف نستمر نحن في إتّباعه ؟ إلى أين سيقودنا ؟

— كان دائماً هكذا ؟ — قال أحدهم بحزن .

— انها الفتاة ، الفتاة الّتي غيّرت فكره نحو الاتجاه الخاطىء .

— كما قلنا من قبل — علّق أحدهم . وكان مسناً جداً — كل هؤلاء المسيحيّون يجب أن يختنوا بالقوة .

— نعم — وافق بعضهم ، ليس كلهم ، اذ أن قسماً منهم خشي من أن يجلب مثل هذا الاجراء الدنس إلى الارض .



الفصل الرابع والعشرون

ذات مساء ، بعد أيام قليلة ، اندفع كنوثيا فجأة داخل كوخ واياكي . بدا قلقاً ، وينظر إلى الخلف من فوق كتفيه كمن يتوقع شخصاً ما يلاحقه ، وهمس :

— واياكي .

— ماذا ، كنوثيا .

سأل واياكي ، وشعر بالخوف . انه لم ير كنوثيا هكذا من قبل أبداً.

— ماذا فعلوا ؟ — سأل كنوثيا .

— من ؟

— اعضاء مجلس القرية .

— ماذا ؟

— انهم يشيعون انك لم تعد معلماً . — قال كنوثيا .

— أوه .

وكان صمت قصير . ثم تخلص واياكي من الصدمة المؤقتة ، وقال مجهداً نفسه كي يظل هادئاً :

— أجلس من فضلك ، أين سمعت هذا ؟

ـ انهم يتهامسون . أنت تعرف كيف ينتشر النبأ . أخبرني كاماو ان المجلس أقصاك من عملك لارتباطك بالرجل الابيض .

أحس واياكي بمرارة ، ذلك ان الرجال الاكبر سناً الذين كافح من أجلهم قد انقلبوا ضده .

ـ وكيف استقبل الناس النبأ ؟ ـ سأل واياكي .

ـ لاأدري . لاأظن انهم سمعوه كلهم . متى إتخذوا هذا القرار ضدك ؟

أحس واياكي بألم حاد عند السؤال الأخير ، أحس كأن كنوثيا واحد من المتآمرين .

ـ ضدي ؟ ليس بمقدورهم اقصائي من العمل ، فهذا ليس من شأنهم ، انه شأن لجنة المدارس فقط . فعلاً لااعرف شيئاً عن الأمر .

ثم وصف لكنوثيا حوادث الليلة التي دعي فيها إلى ماكويو .

ـ ربما كنت مخطئاً في اني جعلت الغضب والعاطفة يتغلبان علي ، والفتاة لاتحبني حتى .

ـ هذا كله من صنع كابوني ، انه يكرهك . اوه ، انت لاتعرف كيف .

اسمع واياكي : أظن ان شيئاً ما سيحدث الليلة . كاماو لمّح بشيء حول الذهاب إلى بيت جوشوا ، لااعرف ماسيحدث بالضبط ، لكن الشباب قد يقومون بفعل ما سيء . إنهم يعتقدون ان نيامبورا هي التي أفسدتك .

ـ انتظر . . ماذا سيفعلون ؟

– لاأدري . لكني اعتقد انه سيكون عملاً فظاً ، ولن يتوقفوا عند هذا الحد . قد يأتونك . انهم يقولون انك حنثت بالقسَم ، وأفشيت الاسرار . يجب ان تهجر الارض ، ان تهرب إلى نايروبي . أقول لك ثانية : كابوني يتابعك وسيتمكن منك ، ان له تأثيراً جديداً على الرجال الاكبر سناً . انهم لايستطيعون مقاومة قوته . انه بلا جذور لكنه يتحدث عن نبوءة قديمة حول المخلّص ، يقول انه هو ذلك المخلّص .

نهض واياكي ، تذكر ان والده تشيغي قد اخبره بأن كابوني فقط هو من يعرف النبوءة القديمة . ربما كان هذا سبب كراهية كابوني له . وأدرك انه لم يعد هناك وقت يضيّعه . وقرر شيئاً : عليه ان يذهب ويحذر جوشوا .

– شكراً لك ياكنوثيا . يجب أن أذهب .

– إلى أين ؟

– إلى ماكويو . يجب ان أحذر جوشوا . يجب ألاّ ينفجر العنف بين الناس ، يجب ألاّ ينفجر الآن .

– لاتذهب يااستاذ .

– يجب أن أذهب .

– لكنك لاتستطيع ، ستكون لديهم حجة لمحاكمتك كخائن اذا عرفوا ذلك .

– كنوثيا .

– نعم ؟

– تتذكر إننا نشأنا معاً .

ـ نعم .

كنوثيا يستطيع ان يتذكر أكثر من واياكي الذي بمقدوره أن يحدس.

ـ اذن ، لاتعترضني ـ قال واياكي بصوت هادىء ـ ولاتظن أني لست مقراً بالجميل لك . أني أقدّر اهتمامك بي كثيراً ، فانت الرجل الوحيد الذي استطيع أن أثق به الآن . لكننا لانستطيع ان نسمح لهذا ان يحدث لجوشوا من خلال حماقة شخص . ربما لم افعل للقبيلة كل ماكنت اتمنى ان افعله ، لذا لاأريدك أن تشرك نفسك في هذا ، لاتأتي معي . اذا بقيت هنا فسوف اعود وأحدّثك ، سأخبرك بما انوي القيام به .

لم يناقش كنوثيا . اذ كان بوسعه إكتشاف الحزم خلف هدوء واياكي . وكان بوسعه ايضاً ان يرى أثر الأهتياج في عينَي المعلم ، لذا تركه يذهب ، لكنه لم يبق في الكوخ ، انما ذهب ايضاً ولحق به إلى نهر هونيا .

تسلق واياكي المنحدرات قلقاً ، آملاً الوصول في الوقت المناسب كي يحذرهم . حاول أن يرتقي التل راكضاً باتجاه بيت جوشوا . إنه لم يذهب إلى هناك من قبل . ومن مسافة بعيدة استطاع أن يسمعهم ينشدون :

بينما راقب الرعاةُ قطعانهم عند المساء .

وكانوا يجثمون فوق الارض .

هبط ملاك الرب

واشرق المجد من حوله .

كان عيد الميلاد يقترب كثيراً . وكان المسيحيون يرقبون في المساء مثل اولئك الرعاة القدماء .

عندما دخل واياكي لاهثاً توقفوا عن الإنشاد كلهم، ونظروا إليه. كان ظهوره بالنسبة لهم ظهوراً غريباً . وساد صمت استمر دقائق قليلة، بينما كان واياكي يحاول استعادة أنفاسه . لكنه شعر بحماقته . ممَ جاء يحذرهم ؟ بماذا سيخبر رجال جوشوا ؟ كانوا يجلسون حول طاولة ويرتلّون إلى الرب ، منتظرين المسيح .

ـ آسف لمقاطعتي لقاءكم . . . لكني . . . لكني اعتقد انكم في خطر . انهم يعتزمون القيام بعمل ما ضدكم هذه الليلة أو نهار الغد .

ـ من ؟ ـ سألت عدة اصوات .

ـ كابوني ورجاله ، مجلس القرية . لاأدري ماذا بوسعكم أن تفعلوا ، لكن . . . .

ـ لاتسألنا ماذا بوسعنا أن نفعل ـ زأر جوشوا . نهض واقفاً ، وحدّق في واياكي . ـ كل هذا كذب . ـ انهما يواجهان بعضهما لأول مرة . الآخرون كانوا يرقبون مندهشين ، خائفين ، متسائلين ـ أخرج ، اخرج من البيت ، هاانت تأتي لتغوي البنت الوحيدة التي بقيت لي . لن أنسى أبداً مافعلتَ بموثوني .

انها المرة الأولى التي يذكر فيها جوشوا موتها علناً . أحس واياكي بالألم ، كأن رفض تحذيره الصادق النيّة قد كشف له فجأة عمق الهوّة الفاصلة بينه وبين جوشوا ، تلك التي قد لايردمها أحد . لحظتها أدرك سبب رفض نيامبورا له . وشعر بالسخرية والاهانة اللتين تعرض لهما

أمام أولئك الناس ، أمام الفتاة التي يحب . كان قد رأى نيامبورا جالسة قرب أمها ميريامو .

ـ لقد قمت بواجبي . كنت احاول انقاذكم من الخطر . ـ كان في صوته ارتجاف خفيف .

ـ انقذ نفسك اولاً ، انقذ نفسك من العقاب الآتي . ماذا تريد في بيتي ، انت الذي عملت دائماً ضد أناس الرب ؟

فجأة أدار واياكي ظهره لهم . فتح الباب وخرج . القى ضوء البيت أشعته عليه ، فانكشف وحيداً يواجه الظلام في الخارج .

عندما شاهده كاماو ورجاله الاربعة الكامنين في الظلام ، شهقوا بالخوف وعدم التصديق . لم يكن كاماو قد أدرك ان واياكي مضى بعيداً في خيانة الناس . الآن بات مقتنعاً بأنه أكبر عدو للقبيلة . لم يعد بمقدوره اعتقال نيامبورا كما أمره مجلس القرية . كلا ، لن يعتقلها الآن ، سيعود ويخبر المجلس بما رأى . انها لم تعد معركة شخصية ، انما حرب بين واياكي والقبيلة .

* *

رأت نيامبورا واياكي وهو يدخل . رأت الحزن والقلق في وجهه : فوثب قلبها مضطرباً . هناك يقف رجُلُها ، هناك يقف واياكي ، المعلم ، مسيحها الأسود الذي ارسلته السماء بعد وفاة موثوني لتنجدها من الخراب . كانت تعرف انه يحبها ، لقد سمعت تلك الكلمة من شفتيه . ومنذ ذلك اليوم راحت تفكر به في الليل والنهار . ولم تهتم لمنع والدها لها من الوقوف معه . فجوشوا يستطيع السيطرة على جسدها ،

لكنه لايستطيع السيطرة على قلبها . وهكذا استمرت تمشي معه يوماً بعد يوم ، تلامسه ، وتضمه إليها كما تحب . عاشت في حلم . كانت معه دائماً ، واحياناً كان الابتعاد عنه يؤلمها ، ويؤذيها ، وقد يبكيها . لأنها تشتاق إليه ، تريده ان يكون قريباً منها طيلة الوقت . وصرخت :

« واياكي ، انت لي . عد إلي » لكنه لم يأت . حال بينهما واجبها ازاء والدها . وقف بينهما دين الحب والغفران . كلا ، لايمكن ان أن يكون ذلك دين الحب أبداً ، أبداً . فدين الحب في القلب . أما الدين الآخر فهو دين جوشوا الذي كان يسير في الاتجاه المعاكس لروحها وينتهك الحب . اذا أدت عقيدة جوشوا وليفنغستون إلى الانفصال فهذا يعني انها ليست عقيدة خيّرة. اذا حالت بين أب وابنته لدرجة أن موت ابنته لايؤثر فيه فهذا يعني انها تؤدي عملاً لاأنسانياً. لقد ارادت نيامبورا الدين الآخر ، الآخر الموحِّد ، الجامع للشمل ، الصوت الذي تكلم منذ القدم : « تعالوا إليَّ يامن تكدون مثقلين بالأعباء ، فأنا أمنحكم السكينة » .

هدّأها ذلك الصوت ، وأرادت ان تسمعه ثانية وثالثة ، وهي جالسة قرب نهر هونيا ، تصغي إلى ارتعاشات مياهه التي يردد صداها النبض الخفي لقلبها ، وتذكرت :

فيسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجدي
والعجل والشبل والمُسمّن معاً . وصبي صغير يسوقها
والبقرة والدابّة ترعيان ويربض اولادهما معاً . الأسد
كالبقرة يأكل تبناً . ويلعب الرضيع على سَرَب الصل
ويمد الفطيم يده على جحر الافعوان . لايسوؤن ولا

يفسدون في جبلي القدسي ، لأن الارض تمتلىء من
معرفة الرب كما تغطي المياه البحر .

هذا هو دينها ، هذا ماتتمناه الآن لقبيلتها . انه المعتقد الذي سيهب الحياة والسلام للجميع . لذا تمسكت به وهي تصلي كي يعود واياكي إليها .

وجاء . لم تكن تتوقعه ، لكنها كانت مهيأة له ومسرورة . كم خشيت عليه . ربما لهذا وثب قلبها . ربما لهذا أحست بشيء غريب في أمعائها ، يمنحها السعادة والألم .

نظرت إلى الرجلين المتقابلين . رأت حبيبها يُذَّل أمامها. وتنازعت طاعتها لوالدها مع حبها لواياكي . واخيراً ، حينما ادار ظهره رافضاً . نهضت واقفة ، وكان صوتها واضحاً وآمراً تقريباً ، قالت :

– استاذ .– توقف واياكي . – إرجع .

أطاع واياكي . بدا الأمر كما في حلم ، حتى بالنسبة لجوشوا الذي صمت من أثر الصدمة . هل نادته بلقبه حقاً ؟ . قالت :

– المعلم لايكذب .

وصرخ جوشوا :

- انتِ ! انتِ ! كيف يمكنك ان تعرفي ذلك ايتها المتمردة الصغيرة ؟

– أعرف. في الاسبوع الماضي طلب كاماو الزواج مني فرفضت.

---

* حفاظاً على الروح الدينية في هذه الفقرة استعنت بالكتاب المقدس الصادر عن « دار الكتاب المقدس في العالم العربي » . – المترجم –

قال انه سيجبرني أو يفعل شيئاً ما سيئاً ، قال اني له ، وأنه الشخص الوحيد الذي بمقدوره أن ينقذ . . . .

فقاطعها جوشوا مرتعداً غاضباً مزبداً ، ولم يدعها تكمل كلامها . وواياكي مايزال في حلم ، ومايزال متألماً . غضب متفجر يدفعه للخروج من الكوخ . في الخارج سمع صخباً خافتاً . في البدء بدا بعيداً لكنه الآن يستطيع ان يسمع بضع كلمات . . . معلم . . خائن . . . وسيطر عليه اكتئاب ثقيل . ادرك انه غير مرغوب فيه رغم كل مافعله للتلال . واستعاد في ذاكرته كلمات والده تشيغي : « لكنهم رفضوا موغو » . يومها تساءل صوته الفتي الرقيق ، فأجاب تشيغي : « دعهم يفعلون ما يحلو لهم ، سيأتي زمن يبكون فيه متوسلين مجيء مخلّصين » . ألم يأت ذلك الزمن الموعود؟ هل ان كابوني هو المخلّص الذي يتوسلون إليه ؟ وماذا سيفعل ؟ انه يستطيع فقط ان يهدم مابناه واياكي . كلا . انه لايستطيع . من المؤكد ان هناك روحاً ، قلباً ، في الأقل تجذرت فيه جهود واياكي . والمعلمون الذين سيأتون قريباً ؟ سيواصلون العمل . اصوات تنشد وتهتف بالموت تعلو وتعلو. ظن انهم قادمون إلى بيت جوشوا . وعاد إلى الكوخ من أجل مناشدة يائسة أخرى :

ــ احترسوا ، ربما هم قادمون إلى هنا .

ــ اخرج ، اخرج من هنا . اغرب عن وجهي ايها الشيطان .

صرخ جوشوا بانفعال راجف . انه يكره واياكي كراهية الرجل التقي للشيطان . هناك همهمة اخرى في الغرفة . ثم انقطعت ، عندما خطت نيامبورا نحو واياكي بينما كانت كل العيون تبصرها . ربما اندهش واياكي وجوشوا معاً بجمالها وشبابها الناضج. أمسكت يد واياكي وقالت

مالم تجرؤ على قوله فتاة في ذلك الوقت ، قالت مالم تستطع هي أن تقوله قبل أيام قليلة :

— انت شجاع ، وأنا أحبك .

استيقظ جوشوا من ذهوله . لم يخطر له مرة ان هذه الفتاة الخانعة . الهادئة ، المطيعة ، قادرة على القيام بمثل هذا الفعل . اندفع نحوها بعنف . وكان على وشك ان يلقي بيديه حولها عندما أدرك ان سلوكه هذا هو غواية أخرى من الشيطان . كما ان مسيحياً مثله يجب ان ينتصر في ساعة الاختبار هذه . وقف واياكي ونيامبورا قرب الباب .

— بالنسبة لي ولبيتي سنستمر في خدمة المسيح . — قال جوشوا وهو يشير إلى نيامبورا بسبابة يده اليمنى . — لستِ ابنتي . لكن دعيني أحذرك — واصل كلامه وقد تغير صوته فأصبح حزيناً هادئاً بعد ان كان غاضباً منفعلاً — ستنتهين نهاية مبكرة ، اذهبي . —

خطا واياكي ونيامبورا كما لو كانا في حلم . كانت الأم ميريامو تنتحب وتقول : « لاتدعها تذهب ، لاتدعها » . بينما ظل الآخرون صامتين متساءلين عن اللعنة التي حلت ببيت جوشوا .

الظلام مايزال يغطي الارض . وفي الاعلى اختفت النجوم ماعدا واحدة أو اثنتين . نيامبورا لم تتمرد من قبل أبداً ، ولاحتى بترو . إنه أول فعل تمرد لها . أدركت تحررها من قبضة جوشوا . كان هناك نداءان قويان : نداء الصوت الداخلي الذي دفعها ، ونداء الارض التي خارج نطاق جوشوا .

— نيامبورا ، ارجوك ، عودي إلى أهلك . — ناشدها واياكي حالما ابتعدا عدة ياردات عن البيت يغمرهما الظلام . ولم ترجع . كانت

الاصوات التي تصم واياكي بالخيانة ترن في الظلام . تذكر واياكي ماقاله كنوثيا ، وانتابه حافز ضعيف في البدء ثم أخذ يقوى ويقوى للحد الذي أصبح نزاعاً حقيقياً في روحه . وقال له الصوت الملح في اعماقه ان يركض ويغادر إلى نايروبي . لديك الآن مايصبو إليه قلبُك ، ثم انهم رفضوك.اركض،اركض،إلى نايروبي،وعش هناك سعيداً مع نيامبورا . ولم لا ؟ ألم يجلب النور إلى التلال ؟ ألم يوقظ الاسود النائمة للحد الذي باتت تهتف : « خائن » ؟ أحس بالخجل من نفسه . انه لايستطيع ان يهرب . ثانية ومضت كلمات والده أمامه : « . . . . الخلاص سيأتي من التلال . يجب أن ينهض رجل وينقذ الناس في ساعة حاجتهم . سوف يريهم الطريق ، ويقودهم . . . . » .

وقف واياكي ونيامبورا الآن فوق قطعة ارض مرتفعة تطل على وادي هونيا . انهما قرب بيت كابوني . كانت الاصوات تصلهما . خاف واياكي ، وخفتت حدة عزمه على عدم الهرب . التفت إلى الفتاة التي بجانبه ، وبصوت مقهور قال :

— موت ينتظرك هناك .

أخذت يده وضغطتها بحنو ، فانبعثت حرارة في دمه ، وشعر كما لو أنه محمول فوق امواج الرغبة والعاطفة التي هزت كيانه كله .

— اوه ، استاذ . لقد احببتك دائماً ، سأذهب حيثما تذهب لاتتركني الآن .

احتضنها ، ثم هبطا تل ماكويو ببطء حتى وصلا إلى مكانهما المقدس .

— لنجلس . — همس لها .

واستلقيا فوق العشب .

كان نهر هونيا يتدفق ولم يسمعا إرتعاشاته لان ارتعاشات اقوى كانت تتدفق في قلبيهما وتجتاح جسديهما . واتحدت روحاهما في روح واحدة ساكنة لدرجة ان تنفسهما بدا لعالم آخر منفصل عنهما .

حين نهضا ليذهبا هبطت على واياكي قوة جديدة ، حتى ان كنوثيا الذي كان قد عاد إلى الكوخ لانتظار واياكي اندهش من رؤية الاشراق الذي كان يعلو وجهيهما اكثر مما اندهش من وجودهما معاً.حقاً شعر واياكي ان روحه التواقة قد هدأت بحضور الفتاة الشافي . لكنه كان يدرك انه سوف يجبر على خيار ما ، خيار بين الفتاة والقبيلة . هذه الليلة أحس ان لديه شيئاً ما يجب قوله إلى الناس،غير أنه لايعرف ماهو. أراد أن يرتاح، اراد وقتاً لاداء استجواب صامت في قلبه . خطرت له صورة والده بقوة . تذكر تلك الرحلة إلى الأَيْكة المقدسة . وهتف بصوت عال :

— غداً سأذهب إلى هناك .

— أين ؟ — سأل كنوثيا .

ارتجف واياكي لحضور ذلك السؤال . وأحس انه لايستطيع أن يشرح رحلته حتى إلى كنوثيا . شعر بوجود والده في كل زاوية في الغرفة ، وفي الظلام في الخارج . كان شعوره حقيقياً كشعوره بوجود نيامبورا التي نامت في سريره . كانت منهكة لكنها تشعر بالاطمئنان .

— إلى التل في جنوب كامينو ، إلى الأَيْكة المقدسة .

— إلى الأَيْكة المقدسة ؟

— أجل ، انها قصة طويلة .

ثم تحدث لكنوثيا عن القصة كلها ، عن رحلته مع أبيه ، تشيغي ، عن النبوءة القديمة وحيرته في معناها . جلس كنوثيا مندهشاً يغمره إجلال جديد لواياكي . وبدا الأمر كما لو كان واياكي وحياً ، شيئاً ليس من هذه الارض .

— انتبه كنوثيا . — قال واياكي بعد صمت طويل — قم بشيء ما من أجلي . غداً يجب أن أتحدث للناس قبل الغروب تماماً . اذن ، عليك أن تدعوهم إلى اجتماع عند نهر هونيا ، فوق الارض التي تقام عليها طقوس الختان ، فالبقعة مسطحة هناك . خذ معك من يساعدك في نشر النبأ في كل تل . غداً سأحسم الأمر مع كابوني امام الجميع ، لأني ياكنوثيا لااستطيع أن أهرب ، ثمة أفكار جديدة بدأت تسطع في ذهني ، اشياء يجب أن أقوم بها وأقولها . ولكن ثمة أشياء أخرى كثيرة أجهلها . لم أكن أدرك أن الوعي الجديد يتطلب تعبيراً في المستوى السياسي . والتعليم بالنسبة لأناس مضطهدين ليس كل شيء . يجب ان افكر ، يجب أن أكون وحيداً .

واستمرا يتحدثان حتى وقت متأخر من الليل . استمع كنوثيا خلاله إلى خطط واياكي ، وشعر انه متحمس للمحاولات الجديدة منتشياً ومحمولاً إلى ذرى جديدة . وصاح :

— لن أتركك أبداً . مهما يفعل الآخرون سأظل معك حتى النهاية .

— شكراً لك ياكنوثيا ، لننتظر يوم غد .



الفصل الخامس والعشرون

هجس واياكي ألماً فاتراً في قلبه . كان مضطرباً . هاهو الريف ينبسط تحت بصره ثانية . لكنه ليس بتلك السطوة التي شعر بها يوم وقف هنا مع والده وهو صبي . كانت الشمس مرتفعة في السماء ولم يتمكن من رؤية جبل كيرنياغا. بدت له الأيكة ليست أكثر من مجرد دغل عادي متشابك بهيئة عناقيد حول شجرة التين التي احاطها شيء ما غريب. كانت ماتزال ضخمة راسخة تتحدى الزمن . بدت هكذا فعلاً ، تزدري تغيرات الطقس . وتساءل : كم من الناس جاءوا قبله ووقفوا في المكان ذاته ؟ كم من الناس جاءوا وقدموا النذور إلى هذه الشجرة ، رمز ايمانهم بقوة غامضة تحكم الكون ومصائر البشر ؟

واحس واياكي بذلك الغموض يحيطه تدريجياً . كان يأتيه من الظلام الذي يخيم على قلبه ، يأتيه حيثما كان في وحدته يصارع قوى غريبة ، قوى بدت وكأنها تحطمه . تساءل عن سبب مجيئه ، عن الأجوبة التي كان يأمل الحصول عليها ، أجوبة لأسئلة لم تتشكل في ذهنه بعد . حتى نيامبورا كانت تتلاشى من الواقع المحيط به . ولم تعد عزاءً له . ذلك ان الواقع المحيط به ، المحيط بقلبه ، كان باعثاً على اليأس ، لأنه كان مدركاً انه يقاتل ضد قوى ً لايفهمها هو نفسه ، قوى ً شعر بها في

فضاء الريف كله . كان خائفاً . ربما كان يهرب من الذي لم يفهمه بسبب خشيته منه . ماذا أيقظ في التلال ؟ وتذكر ماقاله كنوثيا له : إسمك سيحطمك .

حدق في الارض الممتدة تحت بصره . ركز عينيه كمن لم ير شيئاً . كان هناك صخب غريب يكمن في هدوء التلال . ماالذي جلب كل هذا الاضطراب ؟ لام نفسه . شعر ان الامور قد بدأت تسوء فعلاً منذ الاجتماع الكبير ، منذ الوقت الذي اعلنه الجميع فيه معلماً . منذ ذلك الحين إتسع الشقاق بين الفصائل المختلفة .وما محاولة اعضاء مجلس القرية في حرق البيوت ، وتهديدهم لجوشوا واتباعه الا تعبير عن تلك الهوّة التي تفصل بينهم . ربما كان عليه ألاّ يستقيل من المجلس . حدّث نفسه كثيراً في هذا الامر . ماذا لو أعلن موقفاً واضحاً في ذلك الاجتماع ؟ . لقد سنحت الفرصة وضاعت ، وعليه الآن أن يهتم بالحاضر . انه مايزال يتساءل عما اذا خان القبيلة أو أخلص لها ، القبيلة التي صمم على توحيدها ، القبيلة التي اراد انقاذها ، والناس الذين اراد لهم ان يتعلموا ، ان يمنحهم كل منافع مجيء الرجل الأبيض .

كان واياكي يعتقد ان عادات الرجل الابيض ليست سيئة كلها . حتى دينه لم يكن سيئاً في الجوهر . فثمة بعض الخير ، وبعض الصدق يشعان منه . لكن الدين كان بحاجة إلى أن ينقى من الادران ، والذي يبقى فهو السرمدي فيه . ذلك السرمدي هو الحقيقة التي يجب ان تتوافق مع تقاليد الناس . فالتقاليد لايمكن الغاؤها بين ليلة وضحاها . الالغاء يعني تحطيم جذور القبيلة ، تلك الجذور الكامنة في التقاليد والممتدة

إلى ماضٍ بعيد ، إلى البدايات الاولى ، إلى غيكويو وومبي . فالدين الذي لايأخذ بعين الاعتبار طريقة حياة الناس ، الذي لايعترف بمواقع الحقائق والجمال في عاداتهم هو دين لافائدة منه . دين لن يكون مقنعاً ، لن يكون ممارسة معاشة، لن يكون مصدر حياة وحيوية. دين سيبتر روح الانسان فقط ، ويجعله متشبثاً باطمئنان موعود بشكل متعصب . وان لم يكن كذلك فسيضيع . وبما كان ذلك هو الخطأ الكامن في جوشوا . لقد ارتدى ثياباً دينية مزينة ، مكسوة بالبياض . تنكر لماضيه ، واستأصل نفسه من تقاليد القبيلة الواهبة للحياة. ولأنه لم يتبق لديه شيء ما يستند إليه، شيء ما غني وثابت يقف عليه وينمو ، كان عليه ان يتشبث بيديه بكل مالقنه إياه المبشرون عن المستقبل الموعود .

تساءل واياكي عما اذا كان هو الشخص المناسب أم كابوني ! من منهما المسيح ؟ من منهما الذي يجلب الأمل في الخلاص إلى أناس مضطربين ؟ لكن كيف يمكن لرجل ان يكون مخلِّصاً وهو فاقد صلته مع الماضي ؟

موثوني حاولت من قبل . بحثت عن الخلاص لنفسها . إمتلكت الشجاعة وسعت للقيام بمصالحة بين قوىً عديدة ودّت السيطرة عليها . لقد أدركت حاجتها ، حاجتها لامتلاك حياة جميلة نافعة ، تغنيك وتنميّك . تشيغي حاول أيضاً التسوية بين طريقتي حياة ، ولكن ليس في نفسه ، انما في نفس ابنه ، وكان واياكي نتاجاً لتلك المحاولة . أجل ، من خلال سكون التلال ادرك اياكي اشياء كثيرة . ختان النسوة لم يكن مهماً بحد ذاته كعملية جسدية ، انما المهم مايحدثه من أثر في الروح . انها العادة التي لايمكن الغاؤها بين يوم وليلة . الصبر ، وبالدرجة الأولى

التعليم هو مانحتاج إليه . فاذا جعلك دين الرجل الابيض تهجر عادة ما ولم يعطك بديلاً عنها بقيمة مساوية ستضيع . وان اية محاولة لحل النزاع ستقتلك أنت فقط مثلما قتلت موثوني .

انتبه واياكي إلى ان وقت العودة قد حان . ولم تضيء الأيكة المقدسة الطريق امامه . ولم يكن يعرف تماماً إلى أين هو ذاهب ، أو ماالذي يريد قوله للناس . انه مايزال في الظلام. تذكر نيامبورا. انها في كوخه . وتساءل عما تفكر به . وللحظة إنتابه هلع مفاجيء . ومقت نفسه لأنه ترك الكوخ . ماذا لو جاءوا واخذوها بالقوة ؟ ماذا لو ان جوشوا ذهب وأخبر المخفر الحكومي عنه ؟ . ثانية تساءل عن الهرب . ثم وهو يهبط التل نظر إلى الخلف .فتخيل فرصاً وامكانيات عديدة هناك ، بعيداً في التلال ، في الماوراء . ربما سيذهب يوماً ما . ربما سينضم إلى رجال من مورانغا ،وكيامبو ،ونييري . وبصوت واحد سيقولون للرجل الابيض: «إخرج من ارضنا». تلك اللحظة بالضبط أدرك ماتريده التلال. تلك اللحظة شعر انه أكثر فاعلية مما كان يشعر قبل العار الذي لحق بالناس بسبب استيلاء البيض على ارضهم . عار اجبارهم على العمل في اراضيهم من أجل البيض ، واذلال الضرائب التي يدفعونها للحكومة التي لايعرفون عنها شيئاً .

أجل . مجلس القرية كان على حق . فالناس يريدون فعلاً فورياً . والغليان في التلال هو يقظتها ازاء العار والاذلال.لقد انتهكت عزلتهم. لكن ماالفعل الذي يحتاجون إليه ؟ ماذا عليه ان يفعل الآن ؟ كيف يمكنه تنظيم الناس في منظمة سياسية وهم ممزقون بالنزاعات والانقسامات ؟ الآن ادرك ماسيقوله لهم عندما تؤاتيه فرصة أخرى : التعليم من أجل

الوحدة . والوحدة من أجل الحرية السياسية . وفي الحال ملأ هذا التصور قلبه بالرجاء والأمل الجديد . أسرع في هبوطه التل راغباً في الوصول إلى الناس كي ينقل لهم تصوره الجديد : التعليم ، الوحدة ، الحرية السياسية . ثم جاءه الشك . ماذا لو طلبوا منه أن يهجر نيامبورا ؟ ماذا لو . . . . . . ولم يرغب في التفكير بذلك . سوف يقاتل من أجل الوحدة . وستكون نيامبورا جزءاً مكملاً لتلك المعركة . فاذا ضيّع نيامبورا سيضيع هو أيضاً . إنه يقاتل من أجل خلاصه .

جاء إلى مكان الاجتماع أناس كثيرون. نساء واطفال وشيوخ. كانوا مرتبكين بسبب النداء الملح الذي بلغهم به كنوثيا . ثم أنهم جاءوا لأنهم ارادوا الاستماع إلى ماسيقوله لهم معلمهم ، ولأنهم سمعوا اشياء لايمكن تصديقها . ثمة أناس مازالوا متشبثين بصورة المعلم الذي يعرفونه ، المعلم الذي وثقوا وآمنوا به ، الرجل الذي باستطاعتهم ان يتبعوه دائماً ، وفي كل مكان . كيف يمكنهم تصديق خيانته لهم ؟ كيف يمكنهم تصديق حكاية زواجه من فتاة ليست مختونة ، إبنة جوشوا ، عدو الناس ؟ . لقد نبههم واياكي إلى تصورات جديدة ، إلى رغبات جديدة ، إلى طموحات جديدة . أعاد إليهم كرامتهم كقبيلة ، ومنحهم ثقافة الرجل الأبيض عندما اراد المبشرون نفي المعرفة عنهم . كان واياكي مُرضياً بالنسبة لهم . أدى قسم الولاء من أجل نقاء القبيلة ، فكان مثَلاً للجميع . أمن المعقول أن يعمل ضد قسمه ؟ أبمقدوره فعل ذلك ؟ . إنتظروا . كانت الشمس تلقي أشعتها الحارة فوق رؤوسهم العارية ، فينساب العرق على ظهورهم . ومع ذلك ظلوا ينتظرون . كان هناك كابوني ، ورجال المجلس الاكبر سناً ، وشباب القبيلة . كلهم ينتظرون ، ينتظرون مجيء واياكي . احتفظوا بافكارهم وتطلعوا إلى وصوله مدركين ان ذلك اليوم هو يوم المحاكمة .

غداً سيكون طقس الختان. وسيتم فوق ارض الاجتماع بالذات. لذا ستكون هذه الليلة ليلة رقص وغناء . وسوف ينشد جوشوا واتباعه تراتيلهم للمسيح الذي سيولد هذه الليلة . الآن ، في الاجتماع ، لاأحد يغني ، لاأحد يرقص . انهم ينتظرون ليسمعوا ماسيقوله لهم معلمهم .

جلس كابوني وبعض الرجال الاكبر سناً في مجموعة منفصلة عن الآخرين، مرتجفين بمعرفتهم السرية . فلينتظر الناس . لقد صمم كابوني على الانتصار أو الموت . اذ اعتقد ان انتصاره إنتصار للقبيلة ، القبيلة التي يهددها واياكي الآن . انه يكره واياكي بقوة ، ويقابل هذه الكراهية بعقاب القبيلة ضد الرجس والخيانة . ولايعني هذا بالنسبة له صراعاً شخصياً ، بل استمرار لذلك الصراع القائم بين ماكويو وكامينو منذ أمد بعيد . ولأن القادة المتحدرين من تل كامينو أخفقوا في تحقيق شيء للقبيلة، ولأنهم خانوها فقط فان التلال ستنهض وتصرخ مطالبة بالثأر. وكابوني يعتقد انه وسيلة ذلك الثأر.انه المنقذ الذي ينتظره الناس.غير انه هو نفسه لايعرف بالضبط إلى أين سيقودهم . لأنه هو أيضاً كان متشبثاً بقوى يقظة بين الناس. كيف له أن يعرف انهم لايريدون العودة إلى الوراء؟ كيف له أن يعرف ان التلال لم تعد راغبة في عزلتها ؟ كيف له أن يعرف ان تلك القوى التي تدفع الناس إلى التطلع إلى غد أفضل ، والتي تمنحهم الآن وعياً جديداً كانت تشبه الشياطين ، مكتسحة الريف كله من البحر إلى النهر كما قال موغو .

كانت الشمس تهبط نحو الأفق . وكان الناس قلقين ، ونافدي الصبر . وقف بعضهم فوق التل . ومع هؤلاء كان جوشوا واتباعه . انهم لم ينزلوا بعد . كانت ميريامو هناك . اعتقدت هي الأخرى ان شيئاً

ما سيحدث . بكت على إبنتها . وبكت لادراكها الضعف في نفسها ، وعدم قدرتها على فعل أي شيء . فجأة رأى الواقفون على التلال او على المنحدر لهباً كبيراً أصفر ينبثق من الشمس الغاربة . بدا اللهب قريباً وبعيداً معاً وكأنه يحتوي الشجر والريف كله. وارتعب الناس من الخوف.

خاف كنوثيا أيضاً . ولوهلة قصيرة ، وبنظرة خاطفة لمح واياكي ونيامبورا عالقين في اللهب . صرخ ، ولام نفسه لإحساسه بأنه أهمل واياكي . لقد سرقوا نيامبورا من كوخ واياكي ، وكنوثيا يعلم بذلك. إنها الآن بين يدي كابوني ومجلس القرية . كيف يمكنه اخبار واياكي ؟ وكيف سيستقبل النبأ ؟ . وقرر ان يتركه يواجه الحشد ، ويقاتل دون أن يقلقه بخوفه على نيامبورا . ثم ، ومن مكان ما أخذ الناس يهتفون : « لقد اختفى الخائن » . ارتجف كنوثيا ، واضطرب لعدم حضور واياكي ، فغيابه يعرض حياة كنوثيا للخطر . اذ أن عقابهم سيتجه إليه . عرق جسده من الخوف وهو يسمع صياح الناس « فتشوا عنه » . وكان كابوني واتباعه يهتفون بكلمة « خائن » .

كان الحشد كبيراً . وكان الناس يتوافدون . ثم سمع همس جعل الجميع ينهضون بتلهف : « المعلم ! المعلم ! » فجلسوا تاركين واياكي يمر . كان رأسه وكتفاه العريضتان تلامس الأشعة الصفراء المارة عبر الاشجار . وبدا مؤثراً وجميلاً . كان الناس متوترين على جانبي نهر هونيا . وهبط على الارض صمت شامل عندما خطا واياكي نحو البقعة المرتفعة ، قرب اعضاء مجلس القرية ، حيث سيتقرر مصيره .



الفصل السادس والعشرون

حتى واياكي كان متأثراً بالصمت الشامل الذي هبط على الارض لذا كان بمقدوره أن يسمع نبض قلبه . قال لنفسه: يجب ألا أخاف. ثم وقف فوق بقعة الارض المرتفعة . ونظر إلى الناس ، إلى وجوههم وعيونهم المترقبة . سيأتي الخلاص من التلال . ورأى أناساً كثيرين توافدوا وملأوا الارض التي يقام عليها طقس الختان ، كما ملأوا منحدرات التلال . وثمة من تسلق الاشجار . سيظهر رجل ويخلّص الناس في ساعة حاجتهم . وتذكر والده تشيغي ، موغو واكيبيرو . واتشيوري ، كاميري ، وغيكويو وموميي . تذكر جبل كيرنياغا كما رآه مع أبيه في ذلك اليوم العظيم . سأرفع بصري إلى التلال ، إلى المكان الذي تأتي منه النجدة . وتضرع كي يذهب عنه ذلك الخوف البارد الذي استقر في احشائه . وبدا كامينو و ماكويو يحدقان فيه ، متهيئين للانقضاض عليه. سيريهم الطريق، سيقودهم ، وعلى الفور أدرك واياكي أن الساعة قد حانت ، ساعة الحاجة العظيمة . فالقبيلة تحتاجه الآن ، ونيامبورا تحتاجه الآن ، وهو يحتاج نفسه أيضاً . كابوني عنصر مخرّب ، لايعرف الطريق . أما واياكي فعلى استعداد لأن يمشي مع الناس ، ويتحسس معهم في الظلام مفتشاً عن النور ، عن الطريق . وتذكر ان بقعة الارض التي يقف عليها هي البقعة ذاتها التي أراق دمه عليها .

وهذا قسَمٌ أيضاً . وأحس انه مستعد للدفاع عن تلك الأرض . وأخذ يتكلم . في البداية وجّه خطاباً قصيراً ، شكر فيه الناس على مجيئهم . وطلب منهم أن يصغوا إليه باهتمام . كان مصعوقاً بالتطورات الأخيرة التي حدثت في التلال : الكراهية والمنافسة سوف تحطمان الناس. حدد نضالاته التي يسعى إليها خدمة لهم ، خاصة في هذه السنة المنتهية ، السنة التي شهدت تحولاً في التلال ، السنة التي أيقظت الأسود النائمة . حدثهم عن محاولاته لجلب المزيد من المعلمين ، تلك المهمة التي نجح فيها رغم صعوبتها . لكنه حين عاد اتهمه مجلس القرية بالخيانة . أناس — قال واياكي — خرجوا في الليل وهتفوا بخيانته . فليقف هؤلاء الآن ويتهموه علناً . واذا كان قد أساء إلى التلال فالناس تعرف كيف تتصرف معه .

« المعلم » هتفت بعض الاصوات احتفاءً بخطابه القصير . وصاح البعض الآخر بنبرة استحسان « المعلم على حق » دون ان يعرفوا لماذا كان على حق . صرخ آخرون « ليتقدم كابوني » . ونهض بوقار ، فمعركته الناقصة تبدأ الآن .

فيما مضى كان كابوني واحداً من أتباع جوشوا . أما الآن فهو مسؤول مجلس القرية ويعيش في تل ماكويو . تكلم بهيئة من يعرف أشياء سرّية ، شريرة وخيّرة في قلوب الناس في الريف . كان إتهامه الكبير هو أن واياكي ليس طاهراً ، انه نجس ، واذا استمر في تعليم الناس فسيكونون في الظلام بدلاً من النور . عندما ماتت فتاة تدعى موثوني بسبب ارواح شريرة زارتها ، أخذها واياكي إلى مستشفى الرجل الأبيض في سيريانا ولم يتطهر . ولما كان قائداً فان نجاسته سوف تنتقل إلى القبيلة . وعلى القبيلة أن تتخذ اجراءً ما بحقه ، لأن خطره

أكبر مما يتصور الناس . انه متحالف مع الرجل الابيض الذي جلب ديناً مبهماً لإسكات الناس في الوقت الذي كانت فيه اراضيهم يغتصبها أخوة لهم . والضرائب ؟ من لايشكو من الضرائب الثقيلة المفروضة على الرجال والنساء ؟ ثم وصف عدة رحلات سرية قام بها واياكي إلى سيريانا تحت ذريعة جلب المزيد من المعلمين . وحين اعلن مجلس القرية أن على الناس اشهار السلاح بوجه المخفر الحكومي (انه مخفر صغير جداً ، ومن السهل احتلاله) عارض واياكي الفكرة ،وقال : « التعليم! التعليم ! » هل يعيد الينا التعليم أرضنا المغتصبة ؟ ليجب هو بنفسه . وجلس .

لاحظ وياكي ان كابوني تجنب باحتراس أية اشارة إلى جوشوا أو نيامبورا . لماذا ؟ وفكر أنه هو أيضاً سوف يتجنب الإشارة إلى إسم نيامبورا ، وسيتحدث عن الوحدة . ها هي فرصته ، ولن يحصل على واحدة أخرى أبداً .

استقبل الناس خطاب كابوني بصمت ثقيل ، ثم بهمهمة . وكانت الشمس تغرب ببطء .

ثم تحدث واياكي بصوت هاديء ، مؤثر . التمعت عينـــاه ، وأثير غضب ما في أعماقه ، إذ أدرك بما لا يقبل الشك أن كابوني مصمم على رؤيته حطاماً . « ماذا يريد كابوني ؟ » سأل . « من الذي إتبع الرجل الأبيض أولاً ، واعتنق المعتقد الجديد ؟ من خان القبيلة عندما كان بمقدور ماكويو وكامينو والتلال الأخرى اشهار السلاح بوجه الرجل الأبيض ؟ »

استدار نحو الناس ، وبكلمات بسيطة ذكرهم بتاريخهم : « في

الزمن الغابر ، في البدايات ، أنشأ الخالق مورنغو ، غيكويو وزوجته مومبي : أب وأم القبيلة . أوقفهما فوق الأرض المقدسة ، على قمة جبل كيرنياغا ، وأراهما الأرض كلها ، لا شك أنكم تتذكرون ما بشرّ هما به ، تلك البشرى العظيمة التي وهبها لأجدادنا : « هذه الأرض امنحها لكما ، أيها الرجل ، أيتها المرأة ، انها لكما لتفلحوها أنتما وذريتكما » . كانت أرضاً خصبـــة ، تنبت كل أنواع الفاكهة ، وكان العسل فيها وفيراً . وحين جلبهما إلى كامينو استمرا برؤية جمال الأرض . كانا سعيدين ، وبرضاهما إتبعا مورنغو إلى موكوروي واغاتانغا ، حيث أبقاهما هناك . والآن نحن سليلو بنات غيكويو ومومبي التسع ممزقون بالنزاعات والانقسامات » .

تكلم عن أبطال القبيلة العظام ، أشار إلى ديمي وماثاتي ،واتشيوري ، موغووا كيبيرو ، وكاميري . حدثهم عن الانتصارات التي حققها أولئك الأبطال على قبيلة ماساي والقبائل المعادية الأخرى : « لأن التلال كانت موحدة ، كانت تلك الانتصارات ممكنة . لقد وقف الناس معاً في ساحة الحاجة ، مانحاً واحدهم الآخر دفء الاقتراب وحيوية الدم » . ذكرهم بموغو واكيبيرو ونبوءته القائلة بأن أناساً سيأتون بملابس كالفراشات . « لكن الناس رفضوه ، وحين جاء الرجل الأبيض نشب الحسد بين كامينو وماكويو ، ولم تتحدوا ، بل تركتم الرجل الأبيض وحده . الآن ، بدلاً من أن نتعلم عاداته ، بدلاً من أن نتحد للحد الذي يمكننا من طرده نرى كابوني وآخرين ينادون بالثأر من جوشوا واتباعه . هذا ما وددت أن أخبركم به . كلنا أبناء مومبي ، ويجب أن نقاتل معاً في حركة سياسية واحدة ،

وإلا سننتهي وسيظل الرجل الأبيض معتلياً ظهورنا دائماً ، أبمقدور البيت الواحد أن ينقسم ضد نفسه ؟ « كلا » أجابوا بانسجام . « اذن ، يجب أن نقف معاً ، يجب أن نضع حداً للتنافس القديم » .

بدا الناس متأثرين . جلس واياكي ، فنهضوا ، وكما لو كانوا صوتاً واحداً هتفوا : « المعلم ! المعلم ! » . وحين وقف كابوني ليتكلم همّوا بالهجوم عليه كما لو كانوا مدفوعين بالرغبة في تمزيقه إلى أجزاء صغيرة . كانوا سيقدمون على ذلك ، وينهون التهديدات المحيطة بمعلمهم لولا واياكي الذي أوقفهم « لا ، لا ، لا تلمسوه » . بدا واياكي في تلك اللحظة كأنه أدرك أن كابوني ومجلس القرية كانوا في طريقهم إلى التعبير عن شيء كانت القبيلة تشعر به وترغب فيه .

استمعوا إلى معلمهم ، إلى منقذهم ، كأنهم يودون القول : لن نتخلى عنك أبداً . وفكر كنوثيا بأن يشق طريقه نحو واياكي وينبهه ، لكن خوفاً كبيراً سيطر عليه ، وأضعف ركبتيه لدرجة لم يتحرك من المكان الذي يجلس فيه . وبدلاً من ذلك سعى إلى إخفاء نفسه بين الحشد كأنه لا يرغب في أن يُصنّف مع مجموعة المعلم . كان واياكي مندهشاً من امتلاكه لمثل ذلك التأثير على الناس . حتى انه لم يصغ إلى ما كان يقوله كابوني حول الانفصال عن البعثة التبشيرية ، وعن النقاء . لكنه انتبه فقط عندما ذكر كابوني شيئاً عن القَسَم . لحظتها اكتشف ان الجميع كانوا منتبهين إلى كابوني الذي أخذ يتحدث بصوت منكسر ، مليء بالحزن . الحنث بالقسَم يعتبر من أكبر الجرائم التي يرتكبها إنسان ما . إنسان كهذا يحكم عليه بالهلاك .

كان الناس يعلمون ان واياكي أدى يمين الولاء الذي أقره مجلس

القرية ، والذي يعني عدم إفساد القبيلة بالنجاسة ، وعدم إفشاء أسرار المجلس التي تتضمن المصير السياسي للتلال . لذا عندما قال كابوني أن واياكي قد حنث بالقَسَم صاح الناس بصوت غاضب « كلا ، كلا » . كيف يمكنهم تصديق ذلك ؟ كيف يمكنهم تصديق أن واياكي متحالف مع جوشوا لتخريب التلال ؟ وصاحوا ثانية : « كلا ، كلا » . تذكر واياكي نيامبورا التي في الكوخ . وشعر بالخوف ، ودّ لو يعود ويرى إن كانت بأمان أو لا . ثم تساءل عن كنوثيا الذي لم يره في الاجتماع . ربما ظل مع نيامبورا . وأحس واياكي بالارتياح . ثم سمع كلمات كابوني :

– أستطيع أن أثبت لكم دون أية شكوك أنه من رجال جوشوا رغم أدائه قَسَم الولاء .

وصاحوا :

– اثبت لنا ، اثبت لنا .

انتظر حتى يسود الهدوء ، وقال :

– انه متزوج من إبنة جوشوا .

وحل صمت شامل آخر على الأرض قبل أن يصرخوا :

– كلا ، كلا . ليس المعلم .

ارتجف واياكي قليلاً ، وانتظر خائفاً دون أن يعرف سبب خوفه . أراد أن ينهض ويكلم الناس عن نيامبورا ، وكيف ذهب لانقاذها . لكن ساقيه لم تسعفاه عندما رأى نيامبورا في الشفق الكثيف يقودها كا ماو

وشابان آخران . « فلينكرها » ، رمى كابوني تحديه الذي وثب فجأة إلى آذان الناس ، إلى ماكويو وكامينو ، إلى الأشجار المنتظرة الصابرة ، إلى الطيور التي لم تطلق أي صوت . ونهر هونيا كان يجري متدفقاً عبر وادي الحياة ، مرتعشاً ومهمهماً بأغنية مجهولة .

انهم لايسوؤون ولايؤذون في جبلي القدسي . لأن الارض سوف تمتلىء بمعرفة الرب كما تملأ المياه البحر .

وصرخ الناس كما لو كانوا يحذرون معلمهم « القَسَم ، القَسَم » . نهض واياكي . التقت عيناه بعيني نيامبورا . وتذكر يوم رآها فوق هذه الأرض وهي تصلي وحدها . تلك كانت المرة الأولى التي يحتضنها فيها . الآن ، بدت له جميلة ، بدت مثل حمل على مذبح القرابين . وأدرك انه لا يستطيع أن ينكرها ، لا يستطيع أن يتخلى عن حبه لها .

ران صمت طويل ، استرجع الناس خلاله أنفاسهم . وفكر واياكي بتهيئة خطاب . ثم ابتعدت الفكرة عن ذهنه فجأة . وبدلاً منها سمع تحدي كابوني فقط . كيف يمكنه أن ينكرها الآن ؟ كيف ؟ . أخذ ذراعيها . تلا ذلك صمت ثقيل الوطأة . شعرت نيامبورا بالدفء والاطمئنان اللذين بددا شكوكها . كان ذلك تعويضاً عن معاناتها في ذلك اليوم . كيف استطاعت أن تشك بالمعلم ؟ ، حتى واياكي شعر بقوة جديدة أزاحت استغراقه المؤلم في السبب الذي دفعه لأداء القَسَم . لكن القَسَم لا يشترط عليه ألاّ يحب . هذا ما أراد قوله للناس . وعندما حاول أن يفتح فمه صرخت إمرأة « القَسَم ! » . ثم انتقلت الصرخة

إلى أناس آخرين كأنها متنفس عن المشاعر التي أثقلتهم . كيف يخونهم معلمهم ؟ كيف يعمل من أجل الوحدة ونقاء القبيلة ويتزوج من فتاة ليست مختونة ؟ كيف يفعل ذلك بهم ؟

حاول واياكي أن يسكتهم لكنهم لم يستمعوا إليه . كانوا يصرخون بكلمة « القَسَم » فقط . وكان صراخهم يتردد صداه في الغابة . كيف يمكنه أن يخبرهم بأنه لم يخنهم ؟ لكن ليس هذا ما يعنيــه بالوحدة . إنه لم يتحالف مع جوشوا . كيف يستطيع أن يخبرهم بأنه ينوي خدمة التلال ، بأنه يعتزم قيادتهم في حركة سياسية سوف تهز الريف كله ، وتقول للرجل الأبيض « اخرج من ديارنا » ؟ . تطلع في عمق الحشد فرأى الأطفال الذين ساعدهم في امتلاك التعليم ، والمعلمين الذين جاءوا . وكنوثيا . . . . وتساءل « أين كنوثيا ؟ ثم ساوره شك ، شك هزّه لدقائق قليلة من صمت محتضر . هل خانه كنوثيا ؟ هل كان متحالفاً مع كابوني .

ونهض أحد الرجال الأكبر سناً . لم يتمكن واياكي من سماع ما قاله إذ كان ذهنه مزدحماً بالأفكار والشكوك التي كانت تأتي وتختفي . واياكي ونيامبورا سيتركان بأيدي مجلس القرية الذي سيحاكمهما ، ويقرر ما يفعل بهما ، فذلك أفضل ما يمكن القيام به . وردّد الحشد « نعم » كأن عبء محاكمة معلمهم قد أزيح عنهم . ومضوا مسرعين ، فرحين لاكتشافهم بأنه كان مختبئاً في الظلام . ومضوا مسرعين لأنهم لم يرغبوا بالقاء نظرة على المعلم ، أو أن يقرأوا الذنب في وجوه بعضهم ،

ولم يودّوا الحديث فيما بينهم ، إذ كانوا يدركون تمام الإدراك ما فعلوه به ، لكنهم لم يرغبوا في معرفة ذلك .

كانت الأرض صامتة ، والسلسلتان المتقابلتان مختبئتين في الظلام ، ونهر هونيا يجري متدفقاً بينهما في الأسفل عبر وادي الحياة، ويرتفع نبضه فوق سكون الظلام، ليصل إلى قلوب الناس في ماكويو وكامينو.



صدر عن وزارة الثقافة
من سلسلة روايات عالمية
حتى الآن الروايات التالية

١ ـ المبارزة	الكسندر كوبرين	ترجمة : يوسف حلاق
٢ ـ مولك	الكسندر كوبرين	ترجمة : يوسف حلاق
٣ ـ ابن لص	روخاس سيولبيدا	ترجمة : رفعت عطفه
٤ ـ الغاب	ابتون سينكلير	ترجمة : عبد الكريم ناصيف
٥ ـ حبة قمح	جيمس انغوجي	ترجمة : عبد الكريم محفوض
٦ ـ بيدرو بارامو	خوان رولفو	ترجمة : صالح علماني
٧ ـ انت جريح	ايروال اوز	ترجمة : فاضل جتكر
٨ ـ لا تقتل عصفورا ساخرا	هاربر لي	ترجمة : توفيق الاسدي
٩ ـ نقود لماريا	فالنتين رسبوتين	ترجمة : يوسف حلاق
١٠ ـ عنف	فستوس ايايي	ترجمة : هاني الراهب
١١ ـ اطفال منتصف الليل	سلمان رشدي	ترجمة : عبد الكريم ناصيف
١٢ ـ ابلوموف	ايفان الكساندروفيتش غونتشاروف	ترجمة : يوسف سلمان
١٣ ـ واينسبرغ ، اوهايو	شيروود اندرسن	ترجمة : اسامة منزلجي
١٤ ـ المعلم ومرغريتا	ميخائيل بولغاكوف	ترجمة : يوسف حلاق
١٥ ـ ترنيمة عيد الميلاد	تشارلز ديكنز	ترجمة : محمود منقذ الهاشمي
١٦ ـ الحصن	اسماعيل كاداره	ترجمة : عبد اللطيف الارناؤوط
١٧ ـ الجندي الطيب شفيك	ياروسلاف هاشك	ترجمة : توفيق الاسدي
١٨ ـ ماتوا ورؤوسهم محنية	ييلماز غونيه	ترجمة : هشام حداد

٢٥٠٠ ط١ /٩/١٩٨٨

الروايـة العالميـة

هذه هي الحلقة التاسعة عشرة من سلسلة « الرواية العالمية » وهي واحدة من سلاسـل الوزارة التي لاقت رواجاً كبيراً في الوطن العربي . والحلقة هذه تضع القارىء امام وجه من اوجه افريقيا التي نكاد نجهلها نحن العرب رغم ارتباطنا الوثيق بها اقتصاديـاً وسياسياً . المؤلف افريقي ومن ادرى بافريقيا من روائييها .

من الروايات العالمية القادمة في هذه السلسلة :

ويطول اليوم اكثر من قرن	جنكيز ايتماتوف	ترجمة : عاطف ابو جمرة
صورة سيدة	هنري جمس	ترجمة : هاني الراهب
بينما ارقد محتضرة	وليم فوكنر	ترجمة : توفيق الاسدي
جودت بك واولاده	اورهان باموك	ترجمة : فاضل جتكر
تحت انظار غربية	جوزيف كونراد	ترجمة : توفيق الاسدي
ما العمل	تشير شيفسكي	ترجمة : يوسف سلمان
اللعبـة	تريفانوف	ترجمة : نزار عيون السود
ليل جليدي	باجن	ترجمة : هيفاء طعمة

سعر النسخة داخل القطر	في الأقطار العربية ما يعادل
٦٠ ل.س	١٠٠ ل.س

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٨٨